

الأخلاق الإسلامية و آداب المهنة

د. عبد الله الديرشوي

جامعة الملك فيصل - كلية الآداب

إنتساب مطور (تعليم عن بعد)

لغة إنجليزية

المستوى الثالث

المحاضرة الأولى تعريف الخلق، وطبيعته، ومكانته في الإسلام

أولاً - تعريف الخلق:

◀ **الخلق لغة:** بضم الخاء واللام، الطبع والسجية. أي ما جُبِلَ عليه الإنسان من الطَّبْع. وجمعه أخلاقٌ. وهو - أي الخلق - يمثل صورة الإنسان الباطنة، التي هي نفسه التي بين جنبيه وأوصافها ومعانيها المختصة بها. أو بتعبير آخر: الجانب المعنوي في شخصية الإنسان.

كما أن الخلق يمثل صورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها. أو بتعبير آخر: الجانب المادي في شخصية الإنسان.

◀ **واصطلاحاً:** حالٌ للنفس راسخةٌ تصدر عنها الأفعال من خيرٍ أو شرٍ من غير حاجةٍ إلى فكرٍ و رَوِيَّةٍ. وبهذا المعنى يكون وصفاً للنفس. فنقول: فلان خلقه عالٍ. أي أنه يتصف في نفسه بصفة تجعل الأفعال الصادرة عنه محمودة من غير تكلف. وكذلك حين نقول: فلان خلقه سيئ، أي أنه يتصف في نفسه بصفة تجعل الأفعال الصادرة عنه مذمومة من غير تكلف. وهذا المعنى هو المراد من قول الله سبحانه في مدح نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {وإنك لعلی خُلُقٍ عظیمٍ}. وقد يطلق الخلق أحياناً على المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم وعلى أكمل وجه. وبهذا المعنى نقول: الصدق خلق، واحترام الكبير خلق، وبر الوالدين خلق ... وهكذا. وهذا المعنى هو المراد من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق".

شرح التعريف وتوضيحه:

◀ **التعريف الأخير** - أعني المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك - واضح لا لبس فيه، فالصدق والسخاء والرحمة والعدل وحب الخير للناس جميعها أخلاق حميدة، وفضائل مسلمة، يسعى عقلاء الناس للتحلي بها، وتربية أبنائهم عليها.

وأما التعريف الأول فهو الذي يكتنفه بعض الغموض، ويحتاج إلى توضيح، فنقول:

يُقصد بـ (الحال) : الهيئة والصفة للنفس الإنسانية.

و (راسخة) : أي ثابتة في أعماق نفسه. وهو ما يعني أن هذه الأفعال تتكرر من صاحبها على نسق واحد؛ حتى تصبح عادة له. ومن ثم كان مَنْ ينفق المال مرة أو مرتين أو ثلاث مرات على المحتاجين لا يوصف بخلق السخاء والجود، بل لا بد من تكرره منه مراراً؛ بحيث يصبح عادة له.

و (من غير حاجةٍ إلى فكرٍ و رَوِيَّةٍ) : أي من غير من حاجة إلى تأمل واجتهاد وتكوين قناعة عقلية للقيام به. وكذلك من غير تكلفٍ أو تصنعٍ أو مجاهدةٍ نفس، بل بسهولة ويسر وبطريقة تلقائية.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله: "الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلان حسن الخلق والخلق. أي: حسن الباطن والظاهر. فيراد بالخلق الصورة الظاهرة، ويراد بالخلق الصورة الباطنة. وذلك لأن الإنسان مركبٌ من جسدٍ مدركٍ بالبصر، ومن روحٍ ونفسٍ مدركٍ بالبصيرة. ولكل واحد منهما هيئةٌ وصورةٌ: إما قبيحةٌ، وإما جميلةٌ. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه، إذ قال تعالى: {إني خالقٌ بشراً من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين} فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح إلى رب العالمين، والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد".

ثانياً - موضوع علم الأخلاق:

يبحث علم الأخلاق في الأحكام القيمية المتعلقة بالأعمال التي توصف بالخير أو الشر، أو توصف بالحسن أو القبح، وهذا ما يميز الأخلاق عن الغرائز والدوافع؛ لأن الغرائز والدوافع هي الحاجات التي فطر الله الإنسان عليها كحاجته للأكل والشرب والنكاح والنوم، وهي أشياء لا تستوجب لصاحبها مدحاً ولا ذمماً، ولا ثواباً ولا عقاباً؛ فإن مدح الإنسان أو ذم على شيء من ذلك، كان المقصود ليس نفس الفعل، وإنما طريقة صاحبه في تلبية تلك الحاجة، أو إشباع تلك الرغبة. فمن يأكل لا يمدح ولا يذم على نفس فعل الأكل، وإنما يمدح على طريقته

في الأكل فإذا أكل مما يليه وبهدوءٍ، ومضغ الطعام جيداً، وبدأ باسم الله، وانتهى بحمد الله، حُمد على فعله هذا. وإذا أكل بشراهة، وأدخل اللقمة على اللقمة، وجالت يده في القصة؛ ذم على فعله ذلك.

ثالثاً - أقسام الخلق:

يمكن تقسيم الخلق إلى قسمين اثنين باعتبارين مختلفين:

أولهما باعتبار الفطرة والاكْتساب: وبهذا الاعتبار ينقسم الخلق إلى:

◀ **أخلاق فطرية:** جُبلَ الإنسانُ عليها أي هي هبة ومنحة من الله تعالى، وليس للإنسان أي دور في اكتسابها. ومثال ذلك قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأشج عبد القيس المنذر بن عائد وكان وافد عبد القيس وقائدهم ورئيسهم - وعبد القيس قبيلة - (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة) فقال: أشيءٌ جُبلتُ عليه، أم شيءٌ حدث لي؟ فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: (بل شيءٌ جبلت عليه). فقال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحبه الله ورسوله". قال النووي: الحلم هو العقل. والأناة هي التثبت وترك العجلة. وسبب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك له ما جاء في حديث الوفد أنهم لما وصلوا إلى المدينة بادروا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأقام الأشج عند رحالهم فجمعها وعقل ناقته ولبس أحسن ثيابه ثم أقبل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقبضه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأجلسه إلى جانبه.

◀ **أخلاق مكتسبة:** يسعى الإنسان في تحصيلها بالتدريب والممارسة العملية، ومن خلال مجاهدته لنفسه. ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في الصحيح: (العلم بالتعلم) وقوله: "وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ".

ثانيهما باعتبار القبول وعدمه شرعاً: وبهذا الاعتبار ينقسم الخلق إلى:

1 - **خلق محمود:** وهو الأدب والفضيلة، وتنتج عنه أقوال وأفعال جميلة عقلاً وشرعاً.

2 - **خلق مذموم:** وهو سوء الأدب والرذيلة، وتنتج عنه أقوال وأفعال قبيحة عقلاً وشرعاً.

ولقد جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالدعوة إلى فضائل الأخلاق، حتى تكاد تكون هي الغاية الرئيسية من بعثته صلى الله عليه وآله وسلم ويقول في ذلك: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق". وفي حديث آخر قال أسامة بن شريك: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم كأنما على رؤوسنا الطير، ما يتكلم منا متكلم، إذ جاءه أناس فقالوا: من أحب عباد الله تعالى؟ قال: "أحسنهم خلقاً" ويُعدُّ حسن الخلق من أكثر الوسائل وأفضلها إيصالاً للمرء إلى الفوز بمحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والظفر بقربه يوم القيامة. يقول عليه الصلاة والسلام: "إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً".

رابعاً: مكانة الأخلاق في الإسلام

يقسم كثير من الباحثين المعاصرين ما جاء به الإسلام من تشريعات وأحكام إلى شعب أربعة هي: عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق. وربما قسمها بعضهم إلى ثلاث شعب فدمجوا بين العبادات والمعاملات، فقالوا: عقيدة، وشرعية، وأخلاق. وهذا التقسيم إنما يصح بالنظر إلى الجهة الغالبة في تلك القضايا والمسائل التي تناولتها نصوص الشرع، وإلا فعند التأمل وإنعام النظر نجد أن هذه الشعب الثلاث أو الأربع لا تتفك عن بعضها، وأنها متداخلة متعاضدة كالبنيان يشد بعضها بعضاً. فالأخلاق التي يرد ذكرها في آخر الشعب لا تتفك عن العقيدة والعبادات والمعاملات، وهي في نفس درجاتها ومستوياتها من الأهمية والطلب. بل إنها تمثل جوهر رسالة الإسلام ولب شريعته، بكل ما تحمله كلمة الأخلاق من عمق وشمول.

◀ وبيان ذلك من وجوه :

- حث الإسلام على الفضائل وحذر من الرذائل في نصوص لا تحصى من القرآن والسنة، ووصل فيها إلى أعلى درجات الإلزام، ورتب عليها أعظم مراتب الجزاء، ثواباً وعقاباً، في الدنيا والآخرة. فالصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار. وامرأة دخلت النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها، ولا هي دعتهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ. وبغي دخلت الجنة في كلب سقته. والمرء يبلغ بحسن خلقه درجة الصائم لا يفطر، والقائم لا يفتر. ...
- بلغ من عناية الإسلام بالأخلاق أن الله سبحانه حين أتى على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن الكريم اختار التناء عليه من جهة أخلاقه ليعلمنا أنه لا أبلغ ولا أرفع من هذه الصفة. فقال تعالى: {وإنك لعلی خلق عظیم}.
- جعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الغاية والهدف من رسالته إتمام البناء الأخلاقي الذي بدأه من سبقة من الأنبياء والمرسلين، فقال فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق).
- في باب العقائد نجد أن الإسلام يضيف على التوحيد صبغة خُلقية، فيعتبره من باب "العدل" وهو فضيلة خلقية، كما يعتبر الشرك من باب "الظلم" وهو رذيلة خلقية، فيقول سبحانه: {إن الشرك لظلم عظیم} وذلك لأنه وضع للعبادة في غير موضعها، وتوجه بها إلى من لا يستحقها. بل اعتبر القرآن الكريم الكفر بكل أنواعه ظلماً، فقال تعالى: {والكافرون هم الظالمون}.

• والعبادات الإسلامية الكبرى ذات أهداف أخلاقية جلية منصوص عليها في كتاب الله:

- فالصلاة وهي العبادة الأهم في حياة المسلم، لها وظيفة سامية في تكوين الوازع الذاتي، وتربية الضمير الديني على الابتعاد عن الرذائل. قال تعالى: {وأقم الصلاة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} وهي كذلك تعين المسلم على مواجهة متاعب الحياة. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة}.
- والزكاة وهي العبادة التي تلي الصلاة في الأهمية، وسيلة لتطهير وتركية النفس، وهما من الأهمية بمكان في عالم الأخلاق. قال تعالى: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها}. والصيام إنما يقصد به تدريب النفس على الكف عن شهواتها، وإدخال صاحبها في سلك المتقين، وهي جماع الأخلاق الإسلامية. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون}
- والحج تدريب للمسلم على التطهر والتجرد والترفع عن زخارف الحياة، وضبط الجوارح. قال تعالى: {الحج أشهر معلومات، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج}.
- في مجال المال والاقتصاد كان للأخلاق حضورها سواءً في ميدان الإنتاج أم التداول أم التوزيع أم الاستهلاك.
- في مجال الإنتاج يجب أن تكون السلعة المنتجة نافعة مفيدة، وأما ما كان ضاراً بالناس أو مؤذياً لهم فلا يجوز إنتاجه مهما كان سيجلب لصاحبه من أرباح مادية. قال تعالى: {يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما}.
- في مجال التبادل يحرم الإسلام الاحتكار والغش وكتمان العيب، وإنفاق السلعة بالحلف الكاذب، واستغلال حاجة الآخرين أو استغلال بساطتهم أو طيشهم لخداعهم في الحديث الصحيح: "لا يحتكر إلا خاطئ" أي أثم. وفيه أيضاً: "من غش فليس منا". وفيه: "الحلف الكاذب منقعة للسلعة ممحقة للبركة. والتملك، لا يجوز للمسلم أن يملك ثروة من طريق خبيث، ولا يحل له أن يأخذ ما ليس له بحق لا بالعدوان ولا بالحيلة. كما لا يحل للمسلم الملك بطريق خبيث، لا يحل له تنمية ملكه بطريق خبيث كذلك. لهذا حرم الله الربا والميسر، وأكل أموال الناس بالباطل، والظلم بكل صورته، والضرر والضرار بكل ألوانه.
- في مجال التوزيع أمر بالعدل بين الأولاد في العطية من الوالدين، كما وضع نظاماً دقيقاً في توزيع الميراث، والصدقات المفروضة، والغنائم والفيء والخراج والجزية وعطايا بيت المال. فقال صلى الله عليه وسلم: (اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم)
- في مجال الاستهلاك والإنفاق أمر الإسلام بالاعتدال والتوسط، والابتعاد عن الترف، والتبذير والإسراف والتقتير. قال تعالى: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً}. وقال أيضاً: {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين}. ومن هذا الباب تحريمه لاستعمال أواني الذهب والفضة مطلقاً، وكذا تحريمه لبس الذهب والحريير على الرجال.
- في مجال السياسة ربط الإسلام السياسة بالأخلاق، فرفض كل الأساليب القذرة للوصول إلى الغايات مهما كانت تلك الغايات نبيلة، ورفض مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" وجعله سياسته مبنية على الصدق والرحمة والعدل والإنصاف والمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات والعقوبات، وفرض احترام الاتفاقات، والوفاء بالعهود. قال تعالى: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء} وقال جل شأنه: {وبعهد الله أوفوا ..} وقال أيضاً {ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى}.
- في مجال الحرب لم تنفصل سياسة الإسلام عن الأخلاق، بل بقيت كما في السلم مبنية على العدل والرحمة والصدق والوفاء. قال تعالى: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين} ، وقال جل في علاه: {ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام، أن تعتدوا، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب}. وجعل الغاية من الحرب إعلاء كلمة الله، والانتصار للحق والخير. قال تعالى: {الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان} وقال جل جلاله: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين}. وفي السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوصي أصحابه إذا توجهوا للقتال بقوله: "اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً) وكذلك كان الخلفاء الراشدون المهديون من بعده يوصون قوادهم: "ألا يقتلوا شيخاً، ولا صبياً، ولا امرأة، وألا يقطعوا شجراً، ولا يهدموا بناءً". وهكذا فما من مجال من مجالات الحياة يعيشها المسلم بمعزل عن القيم الأخلاقية والضوابط السلوكية، وما هذا الذي ذكرناه إلا غيض من فيض.

المحاضرة الثانية

أسس الأخلاق في الإسلام

◀ يقوم النظام الأخلاقي في الإسلام على ثلاثة أسس هي:

الأساس الاعتقادي، والأساس الواقعي والعلمي، ومراعاة الطبيعة الإنسانية.

أولاً - الأساس الاعتقادي:

يتمثل الأساس الاعتقادي للأخلاق الإسلامية في ثلاثة أركان هي:

◀ **الركن الأول:** الإيمان بوجود الله تعالى الذي خلق الكون وخلق الإنسان وخلق الموت والحياة وهو بكل شيء من الماضي

والحاضر والمستقبل عليم، حتى إنه ليعلم ما يدور في خلجات الأنفس من خير أو شر كما قال تعالى: [وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا تَوْسُوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ] {ق: 16}

◀ **الركن الثاني:** الإيمان بأن الله عز وجل منذ أن خلق الإنسان فوق هذه الأرض عرفه بذاته العلية، وعرفه بطريق الخير والشر،

وطريق الحق والباطل، من خلال رسالاتٍ أوحى بها إلى من اختارهم من أنبيائه ورسله، قال تعالى: [أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ] {البلد: 8 - 10} وقال سبحانه: [وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا] {الشمس: 8}. كما أن الله سبحانه خلق في الإنسان القوة والقدرة على إدراك تلك الحقائق، ونصب الدلائل الكثيرة على ذلك في هذه الطبيعة، يدرکها من تأمل فيها، وبحث عنها، قال تعالى: [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ] {فصلت: 53}. ومن ثم كلفهم الله سبحانه باتباع الحق والخير، واجتناب الشر والباطل، وبين لهم واجباتهم تجاه خالقهم، وتجاه المخلوقات الأخرى، كما بين لهم المحرمات التي يجب عليهم اجتنابها.

◀ **الركن الثالث:** الإيمان بوجود الحياة بعد الموت، وهذه الحياة إما نعيم وإما جحيم؛ فالأولى يكافأ بها من اتبع الحق، وفعل الخير،

واجتنب الشر وما حرمه الله تعالى عليه، والثانية يجازى بها من اتبع الباطل وارتكب ما حرم الله. وهذه وتلك تكون بعد حساب دقيق بين يدي الخالق عز وجل يوم القيامة، كما قال سبحانه: [إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ] {يس: 12}

وقال جل جلاله: [فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ] {الزلزلة: 7 - 8}.

إذن؛ فهذه الحياة ميدان عمل واختبار للإنسان لمن يريد الخير، ولمن يريد الشر؛ قال تعالى: [الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا] {الملك: 2}، والحياة الأخرى للحساب والجزاء؛ قال تعالى: [وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ] {الأنبياء: 47}.

أهمية الأساس الاعتقادي:

- هذا الأساس الاعتقادي بهذا المفهوم –المعتمد على الإيمان بالله وبالرسالات السماوية وبالحياة بعد الموت والحساب - في غاية الأهمية في الاتجاه الأخلاقي في ديننا، وهو السند الذي يُعتمد عليه في إقامة النظام الخلقي الإسلامي، وفي عملية الالتزام به.
- وبدون هذا الأساس تفقد الأخلاق قدسيته، وتأثيرها في الإنسان، بل يستحيل أن تطبق تطبيقاً عملياً دقيقاً في السر والعلن، من غير أن يكون لهذا الأساس في قلوب البشر مكاناً راسخاً، ومن غير أن يؤمنوا به إيماناً صادقاً.
- وليس هذا أساساً للسلوك الأخلاقي فحسب، بل كذلك للحياة؛ إذ لا معنى للحياة في الحقيقة - دون وجود هذا الأساس ودون الاعتماد عليه.

- إن الوجوديين وأمثالهم من الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر يعانون من قلق وحيرة واضطراب في أعماق قلوبهم وفي سلوكهم وتفكيرهم، ثم يسعون إلى تعميمه على البشر كلهم بدعوى أن هذا القلق والحيرة والاضطراب من مستلزمات الوجود الإنساني، وهو ادعاء باطل لا يستند إلى حجة أو دليل أو شبه دليل، وإن أبسط ما يرده أننا نحن المسلمين - والله الحمد - لا نعاني من تلك الظاهرة، بل نشعر بالطمأنينة والرضا.

- والسر في ذلك هو أن في طبيعة الحياة الإنسانية جانباً لا يملؤه إلا الإيمان؛ فمن انعدم لديه الإيمان عانى من الفراغ في هذا الجانب، فأحس بالقلق والاضطراب.

- والأمر الذي يؤكد صحة ما نقوله هو أن هؤلاء الناس لا يعانون فقراً أو حرماناً أو مرضاً، وإنما يعانون من فقدان الطمأنينة التي تجلبها العقيدة الصحيحة والإيمان القويم.

• إن اعتماد الأخلاق على أساس من العقيدة يضيء عليها طابعاً مميزاً من القداسة، وتدفع بالإنسان إلى فعل الخير، والابتعاد عن الشر، وتجعله صاحب ضمير حي، وقد اعترف بهذا الدكتور ألكسيس كاريل حيث يقول: "الفكرة المجردة لا تصبح عاملاً فعالاً إلا إذا تضمنت عنصراً دينياً، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد استحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية".

ثانياً - الأساس الواقعي والعلمي:

إذا كان الإسلام قد دعا إلى المثالية والسمو الروحي، وذم الذين أخذوا إلى الأرض وشهواتها، فإن دعوته إلى المثالية كانت واقعية، وكانت وسطاً بين نظرتين متطرفتين هما:

◀ **أولهما:** دعوات روحية تدعو الإنسان إلى محاربة الطبيعة، وعدم الاستسلام لها، مهما جابهته ضغوطات الحياة ومهما كانت شدتها؛ واعتبروا سعادة الإنسان، وسموه الروحي وخلصه من آلام الحياة إنما تتم بمحاربة الطبيعة، والتسامي عليها.

◀ **ثانيهما:** دعوات للطبيعيين الذين أخذوا إلى الأرض، وقدموا الطاعة لدواعي هذا الركون والخضوع للأرض ومتطلباتها؛ واعتبروا سعادة الإنسان إنما تتم باستجابته لمتطلبات الطبيعة.

فجاء موقف الإسلام نحو الطبيعة واقعياً وسطاً معتدلاً بين هاتين النظرتين، وقد تجلى ذلك في:

1 - دعوته إلى الاستعلاء على الطبيعة وعدم الاستسلام لها؛ وذلك بدعوته الإنسان إلى أن يكون سيداً على الطبيعة، فيسخر مواردها في عمران الأرض، ونفع العباد، كما قال تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} {هود: 61}، وأن يكون سيداً على نفسه؛ فيضبط ميوله ورغباته ويوجهها وفقاً للمثل العليا التي جاء بها الإسلام.

2 - دعوته إلى التأقلم والانسجام مع الطبيعة ومع الواقع، وعدم التصادم معها؛ وذلك عن طريق اتخاذ قواعد للسلوك تنسجم تمام الانسجام مع القوانين الأساسية للحياة البشرية

◀ وهذه القوانين هي:

1 - قانون المحافظة على الحياة. 2 - قانون تكاثر النوع الإنساني. 3 - قانون الارتقاء العقلي والروحي.

حيث يتجلى فيها الأساس العلمي الذي أقام الإسلام نظامه الأخلاقي عليه، وفيما يلي نتناول هذه القوانين

القانون الأول - قانون المحافظة على الحياة:

• اعتبر الإسلام كل سلوك من شأنه أن يحافظ على الحياة وينميها سلوكاً أخلاقياً، وكل سلوك يصاد الحياة أو يعوقها بصورة من الصور يعد سلوكاً غير أخلاقي.

• ومن هنا كان القتل حراماً أخلاقياً، وكذا تهديد الآخرين وإخافتهم، والتحاسد والتباغض والتدابير حراماً أخلاقياً.

• وكان من الواجب احترام الناس، والمحافظة على أرواحهم وأعراضهم ودمائهم، والسعي لنفعهم ما أمكن حفاظاً على الحياة.

القانون الثاني - تكاثر النوع الإنساني:

• اعتبر الإسلام كل سلوك من شأنه أن يؤدي إلى إبقاء النوع وتحسينه سلوكاً أخلاقياً راقياً، فشرع الزواج وحث عليه، ونهى عن التبتل أو الرهبانية كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا، فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: "أنتم الذين قتلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني".

• كما حث على حسن اختيار الزوجة، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم).

• وحث الآباء على تزويج بناتهم من أناس صالحين، فقال صلى الله عليه وسلم: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد).

• ثم إن الإسلام حرم كل سلوك من شأنه أن يعوق استمرار التناسل؛ لأنه يعد منعاً لاستمرار النوع، ومن ثم فقد حرم الإسلام الخصاء، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: "كنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم ليس لنا نساء، فقلنا: يا رسول الله، ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك".

• فالإسلام يعد الخروج على القوانين الطبيعية والأخلاقية تعدياً وخروجاً عن جادة الحياة المستقيمة.

القانون الثالث - الارتقاء العقلي والروحي:

- اعتبر الإسلام كل سلوك من شأنه أن يؤدي إلى السعادة والإقبال على الحياة بمحبة وانسراح وينمي العقل ويحافظ عليه سلوكاً أخلاقياً راقياً، وكل سلوك يضاد ذلك كأن يجعل الإنسان يعيش في عزلة من الناس متشائماً قلقاً، أو يضر بعقله ويجعله مريضاً أو متخلفاً مستسلماً للجهل والخرافات سلوكاً غير أخلاقي.
- ومن ثم فقد حث على العلم وصلة الرحم ومحبة الآخرين والرحمة بهم، والرضا بقضاء الله وقدره، كما في الحديث: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، وفي حديث آخر: "عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له".
- كما حرم الانتحار، أو تعاطي المسكرات أو المخدرات، أو ما من شأنه أن يضر بصحة الإنسان البدنية أو بعقله، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} {البقرة: 219}. وقال سبحانه: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ] {المائدة: 90 - 91}. ومثلها من النصوص كثير جداً.

ثالثاً - مراعاة الطبيعة الإنسانية:

- الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه روح، وجسد، وعقل، وقلب، ومشاعر، وعواطف. وأن هناك صراعاً بين طبيعة الإنسان وتكوينه المادي الذي يميل إلى الأرض والتراب الذي خلق منه، فيستجيب للأهواء والشهوات وينساق لها، وروحه العلوية التي هي من نفخ الإله، وتدعوه إلى سمو والرفق والمثالية.
- والمطلوب هو التنسيق بين هاتين الطبيعتين في الإنسان، وتوجيهه إلى السلوك الذي يليق به بصفته أشرف مخلوق على ظهر الأرض، وصاحب رسالة خُلق من أجلها في هذه الدنيا.
- والمرجع في هذا التنسيق هو الشرع الذي جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من رب العالمين تبارك وتعالى.
- ومن هنا كان هذا الأساس على جانب كبير من الأهمية في الدراسات الأخلاقية، وذلك لما بين سلوك الإنسان، وطبيعته التي جبله الله عليها من صلة وثيقة، ولأن نجاح أي نظام أخلاقي يتوقف على مدى انسجامه مع واقع هذه الطبيعة.

المحاضرة الثالثة

خصائص الأخلاق الإسلامية

تمتاز الأخلاق الإسلامية بجملة من الخصائص تميزها عن غيرها من الأنظمة الأخلاقية، وتعطيها وجودها وطابعها المتفرد والمستقل، وهي:

أولاً - الانبثاق عن عقيدة الإسلام:

الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالعقيدة ارتباطاً قوياً وعميقاً؛ بحيث يستحيل الفصل بينهما. وما أكثر النصوص التي تربط بين الإيمان وحسن الخلق؛ حتى إنها لتجعل الإيمان، هو نفسه حسن الخلق، كيف لا؛ وحسن الخلق يقتضي شكر المنعم (الإله)، والاعتراف بفضله، والثناء عليه، والوقوف عند حدوده بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وأي عقوق أعظم من أن يتمرد الإنسان على خالقه ومولاه، ويتنكر لجميله، ويخالف أمره ونهيه، كما هو الشأن في الكفار والمنافقين.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: "حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق، وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه، وهي بجمالها ثمرة حسن الخلق، وسوء الخلق، فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق. قال الله تعالى: [قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّعْنِ مُعْرَضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ...] {المؤمنون: 1 - 5}، وقال تعالى: [وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا...] {الفرقان: 63}.. من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض، فليشتغل بتحصيل ما فقده، وحفظ ما وجده. وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق، فقال صلى الله عليه وسلم: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت). وقال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه). وقال: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً).

ويقول الداعية المعاصر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: "الإيمان قوة عاصمة عن الدنيا، دافعة إلى المكرمات ومن ثم فإن الله عندما يدعو عباده إلى خير أو ينفهم من شر، يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم. وما أكثر ما يقول في كتابه: "يا أيها الذين آمنوا" ثم يذكر بعد ما يكلفهم به، مثل قوله تعالى: [يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين] {التوبة: 119} [يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً] {الأحزاب: 70}.. وقد وضع صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أن الإيمان القوي، يلد الخلق القوي حتماً، وأن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان، أو فقدانه، بحسب تفاقم الشر أو تهاوته.. فالرجل الصفيق الوجه، المعوج السلوك الذي يقترف الرذائل غير آبه لأحد، يقول رسول الإسلام في وصف حاله: "الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر!!". والرجل الذي ينكب جيرانه ويرميهم بالسوء، يحكم الدين عليه حكماً قاسياً فيقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: (والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قيل ومن يا رسول الله قال الذي لا يأمن جاره بوائقه). وتجد الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يعلم أتباعه الإعراض عن اللغو، ومجانبة الثرثرة والهدر يقول: (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت). وهكذا يمضي في غرس الفضائل وتعهداتها حتى تؤتي ثمارها، معتمداً على صدق الإيمان وكمالها..".

إذا فالدين هو منبث الأخلاق، وهو مصدر الرقابة عليها، وهو المقوم لها إذا انحرفت، وهما متلازمان لإقامة كل مدينة فاضلة خيرة في مصلحة الإنسان.

ثانياً - الشمول:

تتنوع الأخلاق الإسلامية وتشمل جميع المجالات، ومن هذه المجالات:

1 - خلق مع الله ومع رسله عليهم السلام: وردت نصوص كثيرة من الكتاب والسنة تبين خلق المسلم مع الله ومع أنبيائه، من ذلك قوله تعالى: [إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] {النور: 51}. وقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا فِي يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] {الحجرات: 1}، فخلق المسلم مع الله تعالى ومع أنبيائه عليهم السلام يتمثل في السمع والطاعة لما جاء، والتسليم والرضا به دون أخذ أو رد، أو تقديم اقتراحات أو آراء مع رأي الشرع.

2 - خلق مع المسلمين: النصوص في بيان ما ينبغي أن يتحلى به المسلم مع المسلم، من الأخوة والإيثار والنصح والمحبة والتعاون والنصرة والولاية أكثر من أن تحصى. من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "المسلم أخ المسلم؛ لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه".

3 - خلق مع غير المسلم: وردت نصوص كثيرة تبين ما ينبغي أن يتحلى به المسلم مع غير المسلم، من العدل والإحسان وحسن المعاملة، من ذلك قوله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} {المتحنة: 8}. وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته". والذمي من رضي بالعيش مع المسلمين مسالماً في كنف دولة الإسلام، ولم يجاهر ببعائه للمسلمين أو لدينهم.

4 - خلق مع الكبير والصغير: يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا". وقوله: "ليس منا" يدل على عظم وخطورة هذه الجريمة الأخلاقية. فهو ليس على أخلاق المسلمين، ولا على نهجهم ومسلكتهم في الحياة مادام لا يوقر من هو أكبر منه، ولا يعطف على من هو أصغر منه. وإذا لم يكن على أخلاق المسلمين، فليتنبه لنفسه، وليعرف الطريق الذي اختاره لنفسه، وما يحفه من المخاطر.

5 - خلق مع ولي الأمر: ويتمثل في طاعة أوامره في المعروف، وبذل النصح له. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} {النساء: 59}. ويقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "الذِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ". وهناك الخلق مع الوالدين والأبناء والبنات والزوج والقرابة، ومع الضيف والمعلم والصديق، ومع البهائم والجماد... وهكذا نجد أن مجالاته شاملة لميادين الحياة كلها. يقول الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: "قد تكون لكل دين شعائر خاصة به، تعتبر سمات مميزة له. ولا شك أن في الإسلام طاعات معينة، ألزم بها أتباعه، وتعتبر فيما بينهم أموراً مقررّة لا صلة لغيرهم بها، غير أن التعاليم الخلقية ليست من هذا القبيل؛ فالمسلم مكلف أن يلقى أهل الأرض قاطبة بفضائل لا ترقى إليها شبهة، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره، والسماحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم.. الخ. وقد أمر القرآن الكريم ألا نتورط مع اليهود أو النصارى في مجادلات تهيج الخصومات ولا تجدي الأديان شيئاً. قال الله تعالى: [وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ] {العنكبوت: 46}. واستغرب من أتباع موسى وعيسى أن يشتبكوا مع المسلمين في منازعات من هذا النوع الحاد: [قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ] {البقرة: 139}. وحدث أن يهودياً كان له دينٌ على النبي، فجاء يتقاضاه قائلاً: إنكم يا بني عبد المطلب قوم مظل!! فرأى عمر بن الخطاب أن يؤدب هذا المتطاول على مقام الرسول، وهَمَّ بسيفه يبغى قتله. لكن الرسول صلى الله عليه وسلم أسكت عمر قائلاً: (أنا وهو أولى منك بغير هذا، تأمره بحسن التقاضي، وتأمرني بحسن الأداء)، وقد أمر الإسلام بالعدل ولو مع فاجر أو كافر. قال عليه الصلاة والسلام: "دعوة المظلوم مُستجابة، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه) ... وبهذه النصوص، منع الإسلام أبنائه أن يفتروا أية إساءة نحو مخالفيهم في الدين. ومن آيات حسن الخلق مع أهل الأديان الأخرى ما ورد عن ابن عمر: أنه ذبحت له شاة في أهله؟ فلما جاء قال: أهديتم لجاننا اليهودي؟ أهديتم لجاننا اليهودي؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه).. أما من الناحية العامة، فقد قرر الإسلام أن بقاء الأمم وازدهار حضارتها، واستدامة منعته، إنما يكفل لها إذا ضمنت حياة الأخلاق فيها، فإذا سقطت الخلق سقطت الدولة معه.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا

ويؤكد هذه الحقيقة حديث الرسول لقومه وعشيرته، فقد رشحتهم مكانتهم في جزيرة العرب لسيادتها، وتولي مقاليد الحكم بها. ولكن النبي أفهمهم ألا دوام لملكهم إلا بالخلق وحده. فعن أنس بن مالك قال: "كنا في بيت فيه نفر من المهاجرين والأنصار؟ فأقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل كل رجل يوسع رجاء أن يجلس إلى جنبه.. ثم قام إلى الباب فأخذ بعضادتيه، فقال: (الأمراء من قريش ثلاثاً ما فعلوا ثلاثاً ما حكّموا فعدّلوا واسترحموا فرجموا وعاهدوا فوفوا فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين). هذا الحديث حاسم في أنه لا مكانة لأمة ولا لدولة ولا لأسرة إلا بمقدار ما تمثل في العالم من صفات عالية، وما تحقق من أهداف كريمة. فلو أن حكماً حمل طابع الإسلام والقرآن، ثم نظر الناس إليه فوجدوه لا يعدل في قضية، ولا يرحم في حاجة، ولا يوفي في معاهدة، فهو باسم الإسلام والقرآن قد انسلخ عن مقوماته الفاضلة، وأصبح أهلاً لأن يلعن في فجاج الأرض وأفاق السماء. ومن أقوال الإمام ابن تيمية: "إن الله يقيم الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة، وإن كانت مسلمة". إن الخلق في منابع الإسلام الأولى من كتاب وسنة هو الدين كله، وهو الدنيا كلها، فإن نقصت أمة حظاً من رفعة في صلتها بالله، أو في مكانتها بين الناس، فبقدر نقصان فضائلها وانهازم خلقها"

ثالثاً - الثبات:

يقصد بالثبات أن الفضائل الأساسية للمجتمع من صدق ووفاء وأمانة وعفة وإيثار مرتبطة بنظام الشريعة العامة، وهي أمور لا يستغني عنها مجتمع كريم، مهما تطورت الحياة، وتقدم العلم بل تظل قيماً فاضلة ثابتة.

إن الأخلاق في الإسلام لا تتغير ولا تتطور تبعاً للظروف الاجتماعية والأحوال الاقتصادية، بل هي حواجز متينة ضد الفوضى والظلم والشر، كما قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ {البقرة: 229}.

ويمكن إيجاز العوامل التي جعلت أخلاق الإسلام ثابتة في سببين، هما:

◀ **الأول: أنها مرتبطة بالفطرة البشرية:** والفطرة تتصف بالثبات، ويرثها الأحفاد عن الآباء والأجداد، كما في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة) فالخلق فطرة.

◀ **الثاني: كونها نابعة من الدين:** والدين يصلح لجميع الناس، ويهدف إلى الخير المطلق، لأنه من عند الله سبحانه وتعالى، وقد

راعى فيه الخير العام، وكذلك الأخلاق الإسلامية. قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيفُ الخبيرُ﴾ {الملك: 14}.

ويترتب على خاصية الثبات هذه أن الأخلاق مختلفة عن التقاليد؛ لأن التقاليد تتغير بين الفينة والأخرى، بتغير مسوغات وجودها، وليس كذلك الأخلاق، لأنها تقوم على أسس ثابتة كالحق والعدل والخير.

كما أن الثبات في الأخلاق من شأنه أن يبعث الطمأنينة في حياة الفرد، وفي حياة المجتمع، بخلاف من ينظر إلى الأخلاق على أنها تتطور وتتبدل بتبدل الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فإن من شأنها أن تجعل الإنسان يعيش من غير قيم عليا، وفي اضطراب وقلق.

رابعاً - الجمع بين الواقعية والمثالية:

فأما كون الأخلاق في الإسلام واقعية فتعني أنها عملية وقابلة للتطبيق، ولا يستعصي على أحد من الناس تطبيقها وتجسيدها في حياته.

وأما كونها في الوقت ذاته مثالية أيضاً فتعني أن في الناس من تتوق نفسه إلى معالي الأمور، ولا يرضى لنفسه بأن يكون كسائر الناس، ولا يشبع ذلك نهمه ورغبته في التسامي بخلقه، ورغبته في التحلي بالفضائل، ففسح الشرع له ذلك المجال.

فالإسلام راعى بتشريعه استعدادات هذا وذاك من الناس، ولم يحملهم على ما لا يطيقون، وما يمكن أن تمله نفوسهم وتتقاصر عنه، فشرع العدل وذلك بأن يصل كل ذي حق إلى حقه، ولكن دعاه في الوقت ذاته إلى الإحسان وهي مرتبة فوق العدل، فيها التضحية والصفح والتجاوز، قال تعالى في تقرير قاعدة العدل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اءِدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ {المائدة: 8}.

وقال في تقرير المثالية والإحسان: ﴿وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ {الشورى: 40} ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ {النحل: 126}.

والأخلاق الإسلامية في هذا يختلف عن الدعوات المثالية التي نادى بها بعض الفلاسفة من أمثال أفلاطون في كتابه الجمهورية الفاضلة، وكذلك النصراني في الوصايا التي نسبها إلى نبي الله عيسى عليه السلام، ويستعصي على معظم الناس تطبيقها، ولا تستقيم معها حياتهم، وسرعان ما يملونها، وتسأم نفوسهم من فعله لما فيها من تكلف شديد. قال عليه الصلاة والسلام: (عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنَ الأَعْمَالِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا). وفي معناه قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ {التغابن: 16}.

خامساً - الوسطية:

وتعني أن الأخلاق الإسلامية وسطاً بين طرفين متضادين. وتتجلى هذه الوسطية والاعتدال في جوانب الدين كله: ففي نظرة الإسلام إلى تكوين الإنسان كان وسطاً بين:

• غلاة المثاليين الذين يعتبرون الإنسان روحاً علوية محبوسة في الجسد ويجب عليه أن يتحرر منه.

• غلاة الواقعيين الذين يعتبرون الإنسان جسداً فقط ويتكفرون للروح ومتطلباته.

فجاء الإسلام وقرر أن الإنسان مخلوق مركب من عقل وشهوة، وفيه استعداد للتقوى والفجور، وقد بين الله له طريق الخير وطريق الشر بوساطة أنبيائه ورسله، ثم ترك له حرية الاختيار، فقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (7 - 10) سورة الشمس.

وفي نظرة الإسلام إلى الحياة كان وسطاً بين طرفين متقابلين هما:

• من يرى أن الحياة هي هذه الدنيا التي نعيشها فقط.

• وأولئك الذين ينتكرون لهذه الحياة الدنيوية ومتعتها، ويرون أن السعي يجب أن يكون للأخرة فقط.

فجاء الإسلام ليقرر الانسجام والتوافق بين الحياتين، وأن الدنيا مزرعة للأخرة، ويجب على الإنسان أن يعمل لها ويسعى في عمارتها لأنها تمثل جزءاً من المهمة التي خلق الله عز وجل البشر من أجلها. قال تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} (61) سورة هود، أي طلب منكم عمارتها، وقال أيضاً: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} (32) سورة الأعراف. وفي دعوته إلى التحلي بالفضائل الخلقية كان وسطاً لا يقبل الزيادة ولا النقصان، فعلى سبيل المثال لا الحصر، حث على:

1- الحكمة، واعتبرها فضيلة، قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: 269] ولكنها تأتي بين رذيلتين هما: الخبُّ والبله. والخب: إفراط وزيادة من جهة الاتصاف بالمكر والحيلة وسوء الظن. والبله: تفریط ونقصان عن الاعتدال، وسذاجة وسفه.

2- السخاء، واعتبره خلقاً كريماً، لكنه بين أنه يأتي بين رذيلتين، هما: الإسراف والتقتير، قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} [الإسراء: 29] وقال: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: 67].

3- الشجاعة، وهي وسط بين رذيلتي التهور والجبن. فالتهور، زيادة عن الاعتدال، ويقدم بها الإنسان على الأمور المحظورة، التي يجب في العقل الإحجام عنها، قال تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة: 195]. والجبن، نقصان عن الاعتدال، قال تعالى في وصف المنافقين: {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} [التوبة: 87].

4- العفة، وهي وسط بين رذيلتي الشره والخمود. فالشره هو إفراط الشهوة والمبالغة في اللذات. والخمود هو قصور الشهوة عن الاندفاع إلى ما يقتضي العقل نيته وتحصيله.

5- الحياء، وهو وسط بين رذيلتي الوقاحة وصفاقة الوجه من جهة، والخور والمهانة من جهة أخرى.

6- التواضع، وهو وسط بين رذيلتي الكبر والعلو من جهة، والذلة والحقارة من جهة أخرى.

7- العدل، هو التوسط المحمود في كل شيء، بأن يعطي كل ذي حق حقه، من غير غبن وتغابن. والغبن: إفراط. أي أن يأخذ الإنسان ما ليس له. والتغابن: تفریط. أي أن يعطي في المعاملة ما ليس عليه حمد ولا أجر.

المحاضرة الرابعة

وسائل اكتساب الأخلاق

◀ المقدمة

- ذكرنا فيما تقدم أن هناك أخلاقاً فطرية؛ بمعنى أن بعض الناس تشمله العناية الإلهية فيولد سليم الفطرة، كامل العقل، حسن الخلق، عالماً مؤدّباً بغير معلم أو مؤدّب، كما هو الحال في الأنبياء والرسل الكرام عليهم السلام الذين اصطفاهم الله واختارهم، وجعلهم بفضلهم قدوات صالحة تمثل قمة الكمال البشري.
- وهناك من يمتن الله عليه ببعض تلك الصفات الخلقية الحميدة، كما في حديث أشج عبد القيس حين أثنى عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: "إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة".
- وحين سأل النبي أهما من كسبه أم جبله الله عليهما؟ قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "بل الله جبلك عليهما". فإذا ما استنتينا هذه الحالات، فإن الصفات الخلقية الحميدة تحتاج إلى وسائل لاكتسابها والاتصاف بها. ومن أهم هذه الوسائل:

أولاً - التدريب العملي والرياضة النفسية:

- وذلك من خلال مجاهدة النفس، وحملها على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب.
- فمن أراد مثلاً أن يُحصَلَ لنفسه خُلق الجود؛ فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجود، وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه ببذل المال، ويواظب عليه تكلفاً، مجاهداً نفسه فيه حتى يصبح ذلك خلقاً له، وطبعاً فيه، فيتيسر عليه، ويصير به جواداً.
- وكذا من أراد أن يُحصَلَ لنفسه خُلق التواضع وقد غلب عليه الكِبَر؛ فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة، وهو فيها يجاهد نفسه، ويتكلف إلى أن يصبح ذلك خلقاً له وطبعاً فيه؛ فيتيسر عليه، ويصير به متواضعاً.
- وجميع الأخلاق المحموده شرعاً تحصل بهذا الطريق، إلى أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً.
- فالسخي هو الذي يشعر باللذة ببذل المال، دون الذي يبذله عن كره، والمتواضع هو الذي يشعر باللذة بفعل التواضع ...
- وفي هذا المعنى جاء قول النبي صلى الله عليه وسلم: (وجعلت قرّة عيني في الصلاة)، أي أنه صلوات الله عليه وسلامه كان يشعر بغاية الراحة واللذة عند دخوله في المناجاة مع ربه في صلاته، وكان هذا خلقاً له.
- وهذا الشعور بلذة الطاعة، وكره المعصية يجب أن يكون مستمراً على الدوام على مدى العمر.
- ويلاحظ أن الفضيلة تكون أرسخ وأكمل، كلما كان العمر أطول، ومن هنا كان جواب النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل: أي الناس خير؟ قال: "من طال عمره، وحسن عمله".
- وهذا ما جعل الأنبياء والصالحين من عباد الله يرغبون في طول العمر؛ إذ الدنيا مزرعة الآخرة، وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر، كان الثواب أجزل، والنفس أزكى وأظهر، والأخلاق أقوى وأرسخ.

◀ العلاقة بين القلب والجوارح:

- وفي هذا المعنى أيضاً جاء قول النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ".
- أي أن من درب نفسه وحملها على ما يريد، وجد الاستجابة لها بإذن الله.
- فالبدائية تكون من العبد، ثم يأتيه التوفيق من الله تعالى، مثله في ذلك مثل البدن، فكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل ويقوى شيئاً فشيئاً بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة، قابلة للكمال، وإنما تكمل شيئاً فشيئاً بالتربية وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم.
- يتضح إذن مما سبق أنه يمكن اكتساب الأخلاق الجميلة بالرياضة والتدريب العملي، وذلك بتكليف الأفعال الصادرة عنها ابتداءً؛ لتصير طبعاً بعد ذلك في النهاية. وهذا من أثر العلاقة بين القلب والجوارح. وإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح؛ فلا تتحرك إلا على وفقها، كما أن كل فعل يجري على الجوارح ينعكس على القلب، ويؤثر فيه. فيبدو الأمر وكأن فيه دوراً. كلٌّ منهما يؤثر في الآخر ويتأثر به.

◀ ويمكن توضيح ذلك أكثر من خلال الأمثلة التالية:

- 1 - من أراد أن يصير حاذقاً في الكتابة (خطاطاً)، فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق، ويواظب عليه مدة طويلة، يحاكي الخط الحسن، فإن فعل الكاتب هو الخط الحسن، فينشبهه بالكاتب تكلفاً، ثم لا يزال يواظب عليه؛ حتى يصير صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه في النهاية الخط الحسن طبعاً وسجيةً دونما تكلف، بعكس ما كان في البداية.
- 2 - وكذلك من أراد أن يصيح فقيه النفس، فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء، وهو تكرار النظر والتأمل في كتب الفقه، وكثرة القراءة فيها، حتى ينعكس منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النفس.
- 3 - وكذلك من أراد أن يصير سخيّاً عفيف النفس حليماً متواضعاً، فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفاً؛ حتى يصير ذلك طبعاً له ... وهكذا.

ثانياً - البيئة الصالحة والجليس الصالح:

- وذلك بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم، وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح، إذ الطبع يسرق من الطبع الشرّ والخير جميعاً. قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ كَمَثَلِ الْمَسْكِ وَالنَّافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلُ الْمَسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْدِثَكَ وَإِمَّا أَنْ تَنْتَاحَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً). رواه البخاري ومسلم. قال النووي: "في الحديث تمثيله صلى الله عليه وسلم الجليس الصالح بحامل المسك، والجليس السوء بنافخ الكير، وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغباب الناس أو يكثر فُجْرُهُ وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة".
- ويقول الشيخ ناصر السعدي رحمه الله تعليقاً على هذا الحديث الشريف: "اشتمل هذا الحديث على الحث على اختيار الأصحاب الصالحين، والتحذير من ضدهم، ومثل النبي صلى الله عليه وسلم بهذين المثالين، مبيناً أن الجليس الصالح: جميع أحوالك معه، وأنت في مغنم وخير، كحامل المسك الذي تنتفع بما معه من المسك: إما بهبة، أو بعوض. وأقل ذلك: مدة جلوسك معه، وأنت قرير النفس برائحة المسك فالخير الذي يصيبه العبد من جليسه الصالح أبلغ وأفضل من المسك الأذفر، فإنه إما أن يعلمك ما ينفكك في دينك وديناك، أو يهدي لك نصيحة، أو يحذرك من الإقامة على ما يضرك. فيحثك على طاعة الله، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، ويبصرك بعيوب نفسك، ويدعوك إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها بقوله وفعله وحاله. فإن الإنسان مجبول على الاقتداء بصاحبه وجليسه، والطباع والأرواح جنود مجندة، يقود بعضها بعضاً إلى الخير، أو إلى ضده.
- وأما مصاحبة الأشرار: فإنها بضد جميع ما ذكرنا، وهم مضرة من جميع الوجوه على من صَاحَبَهُمْ، وشر على من خالطهم. فكم هلك بسببهم أقوام. وكم قادوا أصحابهم إلى المهالك من حيث يشعرون، ومن حيث لا يشعرون. ولهذا كان من أعظم نعم الله على العبد المؤمن: أن يوفقه لصحبة الأخيار. ومن عقوبته لعبده: أن يبتليه بصحبة الأشرار. صحبة الأخيار توصل العبد إلى أعلى عليين، وصحبة الأشرار توصله إلى أسفل سافلين. صحبة الأخيار توجب له العلوم النافعة، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة. وصحبة الأشرار: تحرمه ذلك أجمع: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا } الفرقان (27 - 29).
- إن أقل ما تستفيده من الجليس الصالح - وهي فائدة لا يستهان بها - أن تتكف بسببه عن السيئات والمعاصي، رعاية للصحة، ومنافسة في الخير، وترفعاً عن الشر، وأن يحفظك في حضرتك ومغيبك، وأن تتفكك محبته ودعاؤه في حال حياتك وبعد مماتك، وأن يدافع عنك بسبب اتصاله بك، ومحبته لك. وتلك أمور لا تباشر أنت مدافعتها، كما أنه قد يصلك بأشخاص وأعمال ينفكك اتصالك بهم. وفوائد الأصحاب الصالحين لا تعد ولا تحصى. وحسب المرء أن يعتبر بقرينه، وأن يكون على دين خليله".
- ويؤكد ما أسلفناه من أثر البيئة الفاسدة والبيئة الصالحة على المرء، قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ قَدْ لَ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ فَكَمَلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، قَدْ لَ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، أَنْطَلِقَ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنْ بَهَا أَنْسَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَأَعْبُدَ اللَّهُ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ، فَاَنْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاحْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ أَدْمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قَيْسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ؛ فَأَلَى أَيْتَهُمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَفَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَفَبَضَّنَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ".
- فقد طالبه العالم بتغيير بيئته الفاسدة. قال النووي: "قال العلماء: في هذا استحباب مفارقة التائب المواضع التي أصاب بها الذنوب، والأخذان المساعدين له على ذلك، ومقاطعتهم ما داموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير والصلاح والعلماء والمتعبدين الورعين، ومن يقتدى بهم وينتفع بصحبتهم".

وفي نفس السياق ورد قول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَدُّ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ النَّهْيِمَةِ تُنْتَجُ الْبَيْهِيْمَةُ هَلْ تَرَى فِيهَا جُدْعَاءَ". حيث أكد على دور وتأثير البيئة المحيطة بالمرء في اكتساب الأخلاق، وكلما كانت البيئة به الصق، وأكثر ملازمة، كان التأثير أكبر.

ثالثاً - القدوة الحسنة:

- الإنسان بطبعه يميل إلى تقليد غيره ومحاكاته، وهذا أمر واقع ومحسوس في دنيا الناس، لا يتجادل فيه اثنان، ولا يتناطح فيه كبشان. وقد قصَّ الله علينا في كتابه العزيز حال كثير من الكفار، ونبَّه إلى أن الذي قادم إلى الضلال والكفر إنما هو تقليدهم الأعمى للأبء والأسلاف. قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} {البقرة: 170}.
- إذا فالمنكر في الأمر ليس هو التقليد، وإنما التقليد القائم على التبعية العمياء، وعلى تعطيل العقل، وإلا فلو كان قائماً على التبصر والتعقل وحسن الاختيار لكان مقبولاً، بل مطلوباً في كثير من الأحيان.
- إن دور القدوة الصالحة وأهميتها في التربية الرشيدة لا ينكر، ومن ثم رأينا القرآن الكريم يقص علينا سير الأنبياء والمرسلين، وفي مقدمتهم سيد ولد آدم محمد عليه الصلاة والسلام. وقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} {الأحزاب: 21}. فهو خير قدوة يقتدي بها الأفراد، وخصوصاً الطامحون لبلوغ الكمال الإنساني في السلوك. ولئن انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه فإن الله قد حفظ لنا من سيرته العطرة ما يكفي أن تكون شاهدة على سمو روحه وكمال نفسه ورفعة أخلاقه، فتقوم بها الحجة علينا، وهي بفضل الله مخدومة مدونة مطبوعة متوافرة في أصقاع الأرض، وما على الراغب في الوقوف عليها، والافتداء بها إلا بذل جهد يسير ليتمكن من اقتنائها ومطالعتها والعمل بما فيها.
- إن الشخصية القيادية تفرض نفسها على الآخرين، وتنتزع منهم الإعجاب رغماً عنهم، وإن ميادين الحياة التي يمكن من خلالها أن تفرض هذه الشخصية أو تلك نفسها على الآخرين كثيرة جداً، فهذا في الشجاعة، وذلك في سداد الرأي والحكمة، وآخر في التربية، وآخر في الإحسان والإيثار وكظم الغيظ، بل قد يكون الميدان الذي يبرز فيه وينال إعجاب الناس مما لا يرضي الله ورسوله كالغناء الماجن، والتمثيل الساقط، وما أشبه ذلك، إلا أن العاقل هو الذي يختار القدوة الصالحة، والنموذج الراقي، الذي يكون التأسي به خيراً وبركة عليه في دنياه وأخراه.
- ومن ثم وجدنا القرآن الكريم يقول للرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن تحدث عن بعض الأنبياء والمرسلين: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ} {الأنعام: 90}

إن للقدوة الصالحة تأثيراً كبيراً في دفع الناس إلى اكتساب الفضائل لأسباب عديدة، منها:

- 1 - لما كانت القدوة الصالحة محل تقدير وإعجاب كبيرين لدى الناس، فإن ذلك من شأنه أن يدفع الشخص المحروم من أسباب هذا المجد إلى تقليده ومحاكاته لعله يصبح يوماً مثله، فيكون لديه حافز قوي يدفعه إلى تقليده، ومع مرور الوقت فإن هذا التقليد يتحول لديه إلى خلق مكتسب.
- 2 - إن وجود القدوات الصالحة، والنماذج الطيبة الراقية، يعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل أمر ممكن، وهو ما يدفعهم إلى محاولة التخلق بمثل أخلاقهم.
- 3 - أن النفس البشرية تتأثر بالأمور العملية أكثر بكثير من تأثرها بالأمور النظرية، وإن موقفاً عملياً واحداً ربما يؤثر أكثر من عشر محاضرات نظرية، فمهما حثَّ أحدنا الناس على الصبر والتضحية سيبقى تأثيره قليلاً بالمقارنة مع موقف عملي يُبتلى فيه أحدنا فيظهر الصبر والجلد والتضحية، وكثيراً ما يقال: إن الرجال مواقف. وموقف واحد قد يرفعه أو يسقطه، وأما الكلام فإن من يحسنه كثيرون، ولا يكلف صاحبه إلا جهداً بسيطاً. إن الناظر في سير العظماء لن يجد لهم الخطب الرنانة، والمحاضرات المنمقة، وإنما يجد المواقف، ودونك فانظر إلى سيرة أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي رضي الله عنهم، فإنك ستجد أن أكثر ما يعرف ويشتهر عنهم، هو مواقفهم الحاسمة في نصره الدين، ووقوفهم الحازم في وجه أعدائه.
- إن أكثر ما يعرفه الناس عامة من سيرة أبي بكر رضي الله عنه، صحبته للنبي في هجرته، وتضحيتيه ببذل النفس والمال فداءً للرسول صلى الله عليه وسلم، ولدعوته، وكذا ثباته على الحق برباطة جأش يوم وفاة النبي، وقوله في الصحابة: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، ومثل ذلك وقفته الحازمة في وجه المرتدين وفي وجه مانعي الزكاة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله: أينقص الدين وأنا حي، والله لو لم يخرج إليهم أحد لقاتلتهم بسيفي، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .

وإن أكثر ما يعرف من سيرة الإمام أحمد بن حنبل امتناعه عن القول بخلق القرآن، وتحمله التعذيب والسجن نصرةً للحق، وعدم إطاعته للخليفة في ذلك. وفي هذا المعنى أثر عن بعض السلف قوله: إن فعل رجل في ألف رجل أبلغ من قول ألف رجل في رجل. وهذا أمر في غاية الأهمية في التربية السلوكية. إن من واجب المصلحين والدعاة المرابين أن يبرزوا للناس؛ وخصوصاً للشباب والنساء النماذج الصالحة من أسلافنا من الصحابة والتابعين، فيبرزوا سير العلماء الربانيين، والزهاد الأتقياء العابدين، والقادة الأفاضل الفاتحين، والمرابين الناجحين المؤثرين؛ لتتحرك الهمم نحو التأسى بهم، والسير على نهجهم.

رابعاً - الضغط الاجتماعي:

- ونعني بذلك المجتمع المسلم، بما يشكله من رقابة على سلوك الأفراد، ويُلزمهم بفضائل الأخلاق.
- وذلك أن الفرد يعيش مع الناس داخل هذا المجتمع أو ذلك، يحتاجهم في شؤون حياته، ولا يستغني عنهم، ويحتاج منهم التقدير والاحترام؛ فإذا ما أقدم على تصرف سيئ، فسيجد من يحاسبه على سلوكه ذلك، وسيشعره بأنه أقدم على سلوك غير مقبول، وأن عليه أن لا يعاوده.
- ويوماً بعد يوم، ومع هذه الرقابة من المجتمع، والضغط الذي يشكله على سلوكه، فإنه سيهجر هذا التصرف السيئ، وسيبدله بتصرف آخر مقبول، يجلب له الرضا والاحترام والتقدير ممن حوله، وبذلك يستقيم خلقه.

الفرق بين الضغط الاجتماعي وتأثير البيئة الصالحة:

- قد يشكل على البعض الفرق بين الضغط الاجتماعي والبيئة الصالحة، فيعتقد أنهما واحدٌ، والحق أن الضغط الاجتماعي أعم من البيئة؛ لأن المسؤولية فيه مسؤولية اجتماعية، ويمكن التفريق بينهما من خلال ما يأتي:
- **البيئة:** تعني تلك المجموعة من الناس الذين يعيش معهم بشكل مباشر كل يوم، وبصورة مستمرة.
- وأما الضغط الاجتماعي: فيعني المجتمع بكل طبقاته وأطيافه وفئاته؛ فهناك رقابة من المجتمع على وسائل الإعلام المختلفة من جرائد ومجلات وكتب وإذاعات وخطب ومقالات ومواعظ وحوارات، فيقوم مستمعوه وقراءه بحسابته على أقواله وتصرفاته المخالفة للفضائل الخلقية.

وهناك نصوص كثيرة حث فيها الإسلام على الضغط الاجتماعي من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منها:

- 1 - في بيان ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ أَوْلَ مَا دَخَلَ النَّفْسُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْعَدُوِّ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ثُمَّ قَالَ: {لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} ثُمَّ قَالَ: كَلَّا وَاللَّهِ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قِصْرًا"
 - 2 - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَغْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقْتُوا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكَوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا" (3).
- ومعنى (القائم في حدود الله تعالى): المنكر للوقوع في الحرام، والقائم بدفعه وإزالته، (عكس الواقع فيه) والمراد بالحدود: ما نهى الله عنه. ومعنى: (استهَمُوا): أَفْتَرَعُوا.

خامساً - سلطان الدولة:

- ونعني به السلطة الحاكمة بما تملكه من قوة ردع، وأجهزة رقابة ومحاسبة، وفي بيان أثر هذه الرقابة من الدولة وأهميتها يقول الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه: "إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن".
- أي أن الله تعالى يدفع بالسلطان أناساً عن اقتراف المنكر؛ خوفاً من عقوبته؛ لأن قلوبهم ميتة لا تستجيب لنداء القرآن الكريم وما فيه من الترغيب والترهيب، وإيمانهم قد استبد به الضعف، فأصبحوا لا يرددعون إلا خوفاً من العقوبة، ومن سيات السلطان، حال العبد الذي يُفزع بالعصا، ولا تكفيه الإشارة.

المحاضرة الخامسة

المسؤولية عن السلوك الأخلاقي

◀ في هذا المبحث سنتعرض لمسائل ثلاثة مرتبطة ببعضها ارتباط العلة بالمعلول. وهي على الترتيب: الإلزام، ثم المسؤولية، ثم الجزء. بمعنى أن الإلزام يكون أولاً، ثم تتبعه المسؤولية، ثم يتبعهما الجزء أخيراً.

أولاً - الإلزام:

تعريفه الإلزام الخُلقي: يمكن تعريف الإلزام في باب الأخلاق بأنه: تكليفٌ بتشريع خُلقي. أو بعبارة أوضح: أمرٌ صادرٌ من الشرع للمكلف بامتثال خُلُقٍ محمودٍ، أو اجتناب خُلُقٍ مذموم. والمقصود بالمكلف هو الشخص: البالغ العاقل.

أي أن الإلزام الخُلقي أمرٌ صادرٌ من الله سبحانه أو من رسوله صلى الله عليه وآله وسلم للبالغ العاقل، وبمقتضاه يُطالب هذا الشخص بأن يتصف بخُلُقٍ محمود كالصدق والعدل ونحوها، أو ينتهي ويتعد عن خُلُقٍ مذموم كالكذب والرياء ونحوها.

مصادر الإلزام الخُلقي:

يذهب عامة علماء المسلمين إلى أن مصدر الإلزام الخُلقي - كغيره من الأحكام الشرعية - إنما هو الله سبحانه، قال تعالى: {إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ} {يوسف 40}، وقال جل في علاه: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} {الأعراف 54}. فالتشريع حقٌّ لله وحده. ثم إن الله تعالى أمرنا باتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {وَمَا تَأْكُمُ الرَّسُولُ فخذوه، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} {الحشر: 7}، وقال أيضاً: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} {آل عمران 32}. فاتباعنا لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام إنما هو استجابةً وامتثالٌ لأمر الله سبحانه. وقد بعثه الله إلينا بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، وأقام بهما الحجة على العباد، وبدونهما لا محاسبة ولا عقاب، قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} {النساء: 165}، وقال أيضاً: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} {الإسراء: 15}. وإذا كان مصدر الإلزام هو الشرع، فإن هناك أموراً تعين على تحقيق الالتزام في حياة الناس، وهي متفرعة عن الشرع، ومنضبطة به، وتتمثل في عوامل داخلية كالإيمان والعقل والفتوة والضمير الخُلقي، وعوامل خارجية كالمجتمع والسلطة الحاكمة.

◀ وفيما يلي بيان موجز بكل واحدة منها:

العوامل الداخلية للإلزام:

أولاً - الإيمان بالله: إن كثيراً من الممارسات الخلقية الحميدة لا تقوم إلا على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر، والطمع بالثواب والرضا من الله تبارك وتعالى، وليس من البشر، وذلك كما في مقابلة الإساءة بالإحسان، والصبر على الظلم مع القدرة على الرد، والإنفاق على الأيتام والمحتاجين من غير انتظار الجزاء منهم، والتضحية بالمال مع شدة الحاجة إليه، وفي هذا جاء قول الله تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا} {الإنسان: 8 - 9}. يقول ابن القيم رحمه الله: "الإيمان هو روح الأعمال، وهو الباعث عليها والأمر بأحسنها والنهي عن أقبحها، وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، واثمار صاحبه وانتهائه".

ثانياً - العقل: وذلك أن الإنسان إذا رأى أن عاقبة فعله ستكون نافعة ومفيدة أقدم عليه، وإذا رأى أنها ستكون ضارة أو أليمة أحجم عنه، أي أن العقل كثيراً ما يكون وراء الإقدام على التصرفات الأخلاقية الحميدة، والإحجام عن التصرفات المشينة، فالعقل يقود صاحبه إلى الخلق الحميد، وتعطيله يقوده إلى العكس. وفي هذا جاء إخبار الله عن أهل النار بقوله: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} {الملك: 10}.

يقول ابن القيم رحمه الله: "أما العقل فقد وضع الله سبحانه في العقول والفتوة استحسن الصدق والعدل والإحسان والبر والعفة والشجاعة ومكارم الأخلاق وأداء الأمانات وصلة الأرحام ونصيحة الخلق والوفاء بالعهد وحفظ الجوار ونصر المظلوم والإعانة على نواب الحق وقرى الضيف وحمل الكل ونحو ذلك ووضع في العقول والفتوة استقباح أصداد ذلك ونسبة هذا الاستحسن والاستقباح إلى العقول والفتوة كنسبة استحسن شرب الماء البارد عند الظمأ وأكل الطعام اللذيذ النافع عند الجوع ولبس ما يدفنه عند البرد فكما لا يمكنه أن يدفع عن نفسه وطبعه استحسن ذلك ونفعه فكذلك لا يدفع عن نفسه وفتوته استحسن صفات الكمال ونفعها واستقباح أصدادها ومن قال: إن ذلك لا يعلم بالعقل ولا بالفتوة وإنما عرف بمجرد السمع فقوله باطل".

ثالثاً- الفطرة: الإنسان بفطرته السوية السليمة يهتدي إلى الأخلاق الحميدة، ويرتاح لها قلبه وضميره، فالعفة والسخاء والحياء والصدق والشجاعة والإحسان والحلم والأناة كلها قيم أخلاقية راقية تهفو إليها الفطر السوية، وتسعى للتخلي بها، على العكس من أضداد تلك الصفات كالخساسة وصفاقة الوجه، والجبن، وبذاءة اللسان فإن الفطر السليمة تستقبحها وتنفر منها، والإسلام دين الفطرة، قال تعالى: [فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ] {الرُّوم: 30}، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء) ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه واقرؤوا إن شئتم: { فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله}. يقول ابن القيم: "الله سبحانه قد أنعم على عباده من جملة إحسانه ونعمه ... أن خلقهم في أصل النشأة على الفطرة السليمة. فكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يخرجه عنها كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وشبه ذلك بخروج البهيمة صحيحة سالمة حتى يجدها صاحبها".

رابعاً- الضمير أو الوازع الديني: ونعني به ذلك الشعور الخفي الذي نحس به في أعماق نفوسنا، ينادينا ويدفعنا إلى ممارسة فعل أو الكف عنه. وحين نستجيب له يغمرنا شعور عارم بالراحة واللذة. وأما إذا تجاهلناه حصل معنا العكس تماماً، فنشعرنا بالانقباض والألم النفسي (ويسمى بوخز الضمير)، ونلوم أنفسنا على ذلك التقصير، ولا نريد أن يطلع عليه أحد. وهذا الضمير إنما يتكون في الفرد في أولى سني حياته ومن خلال القيم التي تغرس فيه، والثقافة التي ينشأ عليها، والتربية التي يتلقاها، والبيئة المحيطة به. ومن هنا كان دور الدين قوياً بل أساساً في نشأته وصياغته في المجتمع الإسلامي. ولعل في قول النبي عليه الصلاة والسلام: "الْبِرُّ مَا أَطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَأَطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ" ما يشير إلى هذا الضمير الخفي أو الوازع الديني، الذي يكون رقيباً على تصرفات المسلم، فيدفعه إلى طيب الأفعال، والأقوال ولو لم تكن نصوص الشرع أمرة بها، وتكفه عن الفعل الذي لا يليق، ولو لم تكن نصوص الشرع ناهية عنها.

العوامل الخارجية:

أولاً- المجتمع: أمر الله سبحانه جماعة المسلمين أن يراقبوا سلوك الأفراد داخل المجتمع، وأن يأخذوا على يد الشارد منهم، والمنحرف عن جادة الحق، وأن يعاقبه ليكون زاجراً له ورادعاً لغيره. قال تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ} {المائدة: 38}، وقال تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} {النور: 2}، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلمه، وذلك أضعف الإيمان" (3). فالأمة كلها مطالبة بأن تراقب أفعال أبنائها وتصرفاتهم؛ فتأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر، وتأخذ على يد الظالم والعايب، وإلا نال جميعهم شؤم المعصية وشرورها. قال تعالى محذراً من ذلك: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} {الأنفال: 25}.

ثانياً: السلطة الحاكمة: إن أهم واجبات السلطة الحاكمة (والمتمثلة بولي الأمر أو من ينوب عنه) هو حمل الناس على الالتزام بحدود الشرع الحنيف أمراً ونهياً، والتخلي بالأخلاق النبيلة، والابتعاد عن السلوك المنحرف. وقد لخص الإمام الماوردي رحمه الله مهام ولي الأمر هذه في كتابه الأحكام السلطانية في أربع كلمات فقال: هي "حراسة الدين، وسياسة الدنيا". وحراسة الدين إنما تكون بتطبيق الشريعة، وردع الخارج عليها. وأما سياسة الدنيا فتكون بمنع المنازعات، وقطع الخصومات، وتحقيق العدل بين الرعية، وإيصال الحقوق إلى أصحابها. ولا شك أن ولي الأمر لن يستطيع أن يحقق ذلك كله من خلال شخصه وبمفرده، بل عليه أن يستعين بأناسٍ صالحين أقوياء أمناء ليكونوا له عوناً على الأمور.

خصائص الإلزام الخلقى:

يمتاز الإلزام الخلقى في الإسلام بجملة من الخصائص أهمها:

- الإلزام بقدر الاستطاعة، [لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا] {البقرة: 286}، فلا تكليف إلا بقدر الطاقة والاستطاعة، وهذا مبدأ يقتضيه العدل الإلهي، كما يقتضيه الخلق القويم.
- اليسر في التطبيق، [يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ] {البقرة: 185}، إذ لم يشرع لنا من التكاليف ما من شأنه أن يوقننا في الحرج والمشقة. مراعاة الأحوال الاستثنائية، كما في إعفاء العجزة والضعفاء والمرضى عن الجهاد، قال تعالى: [لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ] {الفتح: 17}، وكما في الترخص بالتلفظ بلسانه بالكفر مع بقاء قلبه مطمئناً بالإيمان، قال تعالى: [مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا] {النحل: 106} .

ثانياً: المسؤولية:

تعريفها: هي "التزام الشخص بما يصدر عنه قولاً أو عملاً".
أو هي: "تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله".

شروط المسؤولية:

تتمثل الشروط الضرورية لمسئولياتنا أمام الله ثم أمام أنفسنا فيما يلي:

1- الأهلية، وذلك بأن يكون الشخص أهلاً لتحمل المسؤولية (فيكون بالغاً عاقلاً)، وإلا فلو كان مجنوناً أو صغيراً (دون سن البلوغ) فإنه لا يكون من أهل المسؤولية؛ لحديث: "رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ".

2- الإرادة: أي أن يكون العمل نابغاً من إرادته، وإلا فلو كان العمل لا إرادياً كما في الخطأ، أو في حالة النائم، أو كان صاحبه مكرهاً، لم يتحمل مسؤولية تصرفه؛ لحديث: "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه".

3- النية، إذ المسؤولية الحقيقية عند الله إنما هي على النية والقصد دون ظاهر السلوك؛ أي أن تتجه النية من الشخص إلى العمل، وأن يعمل حقيقة. وهذا هو المطلوب من الإنسان، وبه ينتهي مجال الفعل الأخلاقي، وأما النتائج والمعطيات فلسنا مسؤولين عنها، بل أمرها بيد الله تعالى. قال صلى الله عليه وسلم في بيان هذه الحقيقة (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)، كما يؤكد قول الله تعالى: [لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّعْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ] {البقرة: 225}. وعليه فإن الإنسان غير مسؤول عن أعماله اللارادية، لأنه لا مسؤولية من غير إرادة، كما أنه غير مسؤول عن فعله الذي وقع خطأ منه، لعدم توافر نية الشر لديه، وفي بيان ذلك يقول الله تعالى: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ} {الأحزاب 5}.

4- العلم بالعمل، وبما يؤدي إليه من خير أو شر، أو إمكانية العلم حتى وإن قصر ولم يتعلم، قال تعالى: [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا] {الإسراء: 15}. ولا يعني هذا عدم مؤاخذة الإنسان بما جهل، بل المقصود أنه لا يؤاخذ حتى تقوم عليه الحجة، فإذا أمكنه التعلم، ثم قصر ولم يتعلم، فإنه لا يُعذر بجهله.

5- كون العمل مما يطاق، أي أن بإمكان المكلف الفعل أو الترك: قال تعالى، [لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا] {البقرة: 286}.

خصائص المسؤولية:

تنقسم المسؤولية في الإسلام بأنها ذات طابع شخصي، بمعنى أن الإنسان يتحمل مسؤولية تصرفاته فقط دون تصرفات غيره، وقد أكدت هذه الحقيقة آيات كثيرة من كتاب الله منها: {مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} {الإسراء 15}، ومنها: {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} {النجم 39}، والثواب والعقاب إنما يكون على تصرفاته من الأقوال والأفعال.

غير أن هذه المسؤولية الفردية لا تعني أن لا يكون الفرد مسؤولاً عن انحراف أبنائه أو أقرانه، أو من له ولاية عليه. والمسؤولية هنا ليست من أجل الفعل، بل من أجل التقصير في واجبه فيما وكل إليه؛ كما في الحديث: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"، أو لتقاعسه عن واجبه الذي فرضه عليه الشرع، قال تعالى: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر} {آل عمران 104}.

أنواع المسؤولية:

تنقسم المسؤولية إلى ثلاثة أنواع:

- (1) المسؤولية الأخلاقية المحضة: وتعني الالتزام الذاتي من الإنسان نفسه على الإتيان بشيء أو الانتهاء عن فعل شيء.
- (2) المسؤولية الاجتماعية: وتعني الالتزام تجاه الآخرين من أبناء المجتمع، وما يفرضه المجتمع من قواعد.
- (3) المسؤولية الدينية: وتعني الالتزام أمام الله تعالى.

ثالثاً - الجزاء:

- تعريفه: هو الأثر المترتب على الفعل الإنساني؛ ظاهراً أو باطناً، في الدنيا أو في الآخرة.
- أنواعه: للجزاء ثلاثة أنواع هي: الجزاء الأخلاقي، والجزاء الشرعي، والجزاء الإلهي.

1- الجزاء الأخلاقي:

ويعني ما يلاحظه الإنسان من نفسه جراء إقدامه على عمل طبقاً لما يعرفه من الأحكام والتشريعات والقواعد ويحس بها، كالرضا في حالة النجاح، والألم في حالة الإخفاق. يقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (من سرته حسنته وسأته سيئته فذلك المؤمن). حديث صحيح. ففي هذا الحديث ترجمة وتحديد للإيمان الخلقى.

2- الجزاء الشرعي:

ونعني به العقوبات التي أقرتها الشريعة الإسلامية لأولئك الذين يتعدون حدود الله، فيظلمون بذلك أنفسهم، ويظلمون غيرهم. والغاية من هذا الجزاء الشرعي معاقبة المجرم وردعه، وكذا ردع الآخرين ممن يمكن أن تسول له نفسه ارتكاب مثل تلك الجرائم. وهذه العقوبات على نوعين:

- حدود: وهي جزاءات حددها الشرع كحد الزنا، والسرقعة، والذف... .
- وتعزيرات: أي عقوبات تأديبية يفرضها القاضي على جنائية أو معصية لم يحدد الشرع فيها عقوبة.

3- الجزاء الإلهي:

إذا كان النوعان السابقان من الجزاء يقعان في الدنيا، فإن الجزاء الإلهي له طبيعته وامتداداته من الدنيا وإلى الحياة الآخرة. في حالة الطاعة والامتثال له في الدنيا الرضا من الله والتوفيق والحفظ وتيسير الأمور والنصر والعزة، وهناك آيات كثيرة تؤكد هذا منها: { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ } {الطلاق 2 - 3}. ومنها { إِنْ تَنْصَرَوْا لِلَّهِ يَنْصِرْكُمْ } {محمد 7}.

وفي حالة المعصية والاستمرار عليها وعدم التوبة منها له في الدنيا ضنك العيش والمصائب والسخط من الله، قال تعالى: { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } {النحل 112}، وقال تعالى: { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِن لَّهِ مَعِيشَةٌ ضَنْكاً } {طه 124}.

وفي الحياة الآخرة للمؤمن الجنة والرضا، قال تعالى: { إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزْلاً.. } {الكهف 107} وقال تعالى: { إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ وَدّاً } {مريم 96}. وللكافر والمنافق نار جهنم والسخط من الله، قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ } {البينة: 6} .

المحاضرة السادسة

نماذج من أخلاق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم

1) الرسول ذو الخلق العظيم:

قال تعالى مادحاً نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم 4] وتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في وصف أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام: (كان خلقه القرآن). أي أن أخلاقه عليه الصلاة والسلام تجسيد عملي لما جاء به القرآن الكريم من أوامر أو نواهي أو مثلٍ عليا. فهو الذي اختاره الله سبحانه ليكون أسوة ومثلاً أعلى للبشرية، فقال تعالى: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً} [الأحزاب: 21].

وهو الذي وصفه الله بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وهو الذي قال الله فيه: {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم} [الأحزاب: 6] زكى الله لسانه فقال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ [النجم: 3]، وزكى صدره، فقال: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الانشراح: 1]، وزكى هديه ومنهجه فقال: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: 52]، وقال: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: 31]، ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم متحدثاً عن نعمة ربه عليه (أدبني ربي فأحسن تأديبي)، وقال: (أما إني لأخشاكم وأتقاكم لله). ويقول أنس رضي الله عنه: "كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً"، وعن صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: "ما رأيت أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم". والمحاضرة وكذا عشرات المحاضرات من أمثالها لن تتمكن من إعطاء الموضوع حقه، ولكن ما لا يدرك كله، لا يترك كله. ومن ثم فإننا سنكتفي بعرض نماذج من أخلاق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

2) عبادة النبي صلى الله عليه وسلم:

كان النبي عليه الصلاة والسلام كما وصف نفسه، أتقى الناس وأخشاهم لله، وأكثرهم عبادة وتألهاً، فمن كريم أخلاقه صلى الله عليه وسلم أنه كان شاكراً. تقول عائشة رضي الله عنها: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: (أفلا أكون عبداً شكوراً)، وعن حذيفة بن اليمان قال لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد العتمة فقلت يا رسول الله أئذن لي أن أعبد بعبادتك فذهب وذهب معه ... ثم أتى المسجد فاستقبل القبلة وأقامني عن يمينه ثم قرأ فاتحة الكتاب ثم استفتح بسورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا سأل، ولا آية خوف إلا استعاذ، ولا مثل إلا فكر حتى ختمها ثم كبر فركع فسمعه يقول في ركوعه سبحان ربي العظيم ويردد فيه شفتيه حتى أظن أنه يقول وبحمده فمكت في ركوعه قريباً من قيامه ثم رفع رأسه ثم كبر فسجد فسمعه يقول في سجوده سبحان ربي الأعلى ويردد شفتيه فأظن أنه يقول وبحمده فمكت في سجوده قريباً من قيامه ثم نهض حين فرغ من سجديته فقرأ فاتحة الكتاب ثم استفتح آل عمران لا يمر بآية رحمة إلا سأل، ولا آية خوف إلا استعاذ، ولا مثل إلا فكر حتى ختمها ثم فعل في الركوع والسجود كفعليه الأول ثم سمعت النداء بالفجر قال حذيفة فما تعبدت عبادة كانت أشد علي منها) وكان يدعو ويسبح ويثني على الله تبارك وتعالى ويخشع، يقول عبد الله بن الشخير رضي الله عنه: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء). وكان يقول: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً) وكان يكثر من الصيام. تقول عائشة رضي الله عنها: (كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، ولم أره صائماً في شهر قط أكثر منه في شعبان، كان يصوم شعبان كله، كان يصوم شعبان إلا قليلاً) وكان ينظر إلى نفسه وعبادته فيرى نفسه مقصراً في جنب الله فيقول: إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله مائة مرة).

3) دعوته صلى الله عليه وسلم:

كانت دعوته عليه الصلاة والسلام لجميع الخلق، وكان أكثرهم إيذاءً وابتلاءً في سبيلها، ومن ذلك شفقتة بمن يخطئ أو من يخالف الحق وكان يحسن إليه ويعلمه بأحسن أسلوب، بألطف عبارة وأحسن إشارة،

- من ذلك ما رواه أبو أمامة - رضي الله عنه - قال: إن فتى شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه. فقال له: (ادنه)، فدنا منه قريباً، قال: (أتحبه لأمك؟) قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: (ولا الناس يحبونه لأمهاتهم) قال: (أفتحبه لابنتك؟) قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لبناتهم) قال: (أفتحبه لأختك؟) قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لعلماتهم). قال: (أفتحبه لخالتيك؟) قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لخالاتهم) قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه) فلم يكن

بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء. قال بينما نحن في المسجد مع رسول الله {صلى الله عليه وسلم} إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله {صلى الله عليه وسلم} مه مه فقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} لا تزرموه دعوه فتركوه حتى بال ثم إن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} دعاه فقال له إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن أو كما قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال وأمر رجلاً من القوم فجاء بدلوٍ من ماء فشبهه عليه) وقد انتهج النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في دعوته ولطيف أسلوبه للناس كلهم حتى شملت الكافرين ، فكان من سبب ذلك أن أسلم ودخل في دين الله تعالى أفواجٌ من الناس بالمعاملة الحسنة والأسلوب الأمثل، وكان يتمثل في ذلك صلى الله عليه وسلم قول الله عز وجل: { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [النحل: 12]

4) رحمته صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى في شأن نبيه: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الانبياء: 107)، فهو صلى الله عليه وسلم إذا رحمة للعالمين وليس للمؤمنين فقط، ورسالته رحمة للجميع ، ومن ثم كان يقول: (إنما أنا رحمة مهداة). وعندما طلب منه أن يدع على المشركين قال: (إني لم أبعث لعناً) ودعا لهم بالهداية. وقال عليه الصلاة والسلام : (اللهم إنما أنا بشر، فأبي المسلمين سببته أو لعنته، فاجعلها له زكاة و أجراً " . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم : (اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً ، فشقَّ عليهم، فاشقُقْ عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً، فرقق بهم، فارقق به) قال تعالى : {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لُنتَ لَهُمْ} (آل عمران: 159)، وقال صلى الله عليه وسلم في فضل الرحمة: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) ومن مظاهر رحمته بالمؤمنين أنه أمر من أهمهم في الصلاة بأن يخفف فقد جاء رجلٌ إلى النبي {صلى الله عليه وسلم} فقال إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا، فقال أبو مسعود الأنصاري: فما رأيت النبي {صلى الله عليه وسلم} غضب في موعظةٍ قط أشد مما غضب يوماً فقال يا أيها الناس إن منكم منفريين فأيكم أم الناس فليوجز فإن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة) وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى أَبِي سَيِّفِ الْقَيْنِ وَكَانَ ظَنُورًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ، بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَدْرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ ثُمَّ اتَّبَعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ، يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ

5) صدقه صلى الله عليه وسلم:

اشتهر النبي بين قومه بالصادق الأمين حتى قبل إعلان دعوته وإعلامهم بأن الله قد أرسله إليهم ولعل في الصورتين الآتيتين ما يؤكد هذا المعنى:

1 - اعتراف أعدائه بصدقه حتى قبل إعلانه لدعوته، ما جرى معه صلى الله عليه وسلم حين دعا الناس إلى رسالته. فقد روى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال لما نزلت الآية (وأندر عشيرتكَ الأقربين) سعد النبي {صلى الله عليه وسلم} على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم كنتم مصدقي؟ قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم أهدا جمعتنا فنزلت (تبت يداً أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب)

2 - ما أخبر به عبد الله بن سلام الحبر اليهودي وبسببه أسلم، قال: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَقِيلَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجُنْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظَرِ إِلَيْهِ فَلَمَّا اسْتَنْبَتُ وَجَهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمُ بِهِ أَنْ قَالَ أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ؛ هكذا لم يحتج الأمر منه أن يعلم أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى أن ينظر إلى وجهه ليعرف أنه ليس بوجه كذاب.

(6) شجاعته صلى الله عليه وسلم:

فقد كان الأشجع والأجود بنفسه، ومن قصص شجاعته :

1 - سبقه لكشف أسرار العدو : ما رواه مسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ وَقَدْ فَرَّعَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَأَنْطَلَقَ نَاسٌ قَبْلَ الصَّوْتِ فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاجِعًا وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرِيٍّ فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ وَهُوَ يَقُولُ لَمْ تُرَاعُوا لَمْ تُرَاعُوا قَالَ وَجَدْنَاهُ بَحْرًا أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ) أَي أَنَّ الْفَرَسَ كَانَ سَرِيعًا فَسَبَقْتُمْ إِلَى الصَّوْتِ وَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَخِيفُ فَارْجِعُوا.

2 - وروي عن علي رضي الله عنه قال: كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمَ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ. وقال علي رضي الله عنه أيضًا: لَقَدْ رَأَيْنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُودُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا

وعن العباس رضي الله عنه قال شهدت مع رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يوم حنين، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يركض بغلته قبل الكفار قال العباس وأنا أخذ بلجام بغلة رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أكفها إرادة ألا تسرع فقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أي عباس ناد أصحاب السمرة. قال عباس - وكان رجلاً صينياً فقلت: أين المهاجرون الأولون أين أصحاب سورة البقرة والنبى صلى الله عليه وسلم يقول قدما: أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب. قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها فقالوا يا لبيك يا لبيك قال فافتتلوا والكفار حتى انهزم الكفار. قال وكانى أنظر إلى النبى {صلى الله عليه وسلم} يركض خلفهم على بغلته.

(7) عفو النبى صلى الله عليه وسلم:

1 - عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: (لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ التَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، وَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَظَنَنْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ . فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبِّي إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَطَبَقْتُ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ). فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا).

2 - وعن أنس قال كنت أمشي مع رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبدة شديدة. قال أنس فنظرت إلى صفحة عاتق النبى {صلى الله عليه وسلم} وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته. ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه، فضحك ثم أمر له بعتاء). وعن عائشة قالت : مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ تَعَالَى.

المحاضرة السابعة

نماذج من أخلاق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم

(8) تواضعه صلى الله عليه وسلم :

كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد التواضع، يُجيب دعوة الحر والعبد، والغني والفقير، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر.

فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً، فكلمه فجعل تُرْعَدُ فرائصه، قال جرير: فقال له النبي: (هون عليك فإنني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد في هذه البطحاء). ثم تلا جرير بن عبد الله البجلي {وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد}. قال فنطق الرجل بحاجته.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار ولقد كان يوم خيبر ويوم قريظة على حمار خطامه حبل من ليف وتحتة أكاف من ليف. وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم.

وكان صلى الله عليه وسلم ينهى عن مدحه وإلقاء الألقاب عليه، ويقول: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا عبد الله ورسوله).

وكان يحذر من الكبر، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر". قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطرُ الحق، وغمطُ الناس". ومعنى بطرُ الحق: دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً. ومعنى غمطُ الناس: احتقارهم. فبين النبي صلى الله عليه وسلم المعنى الصحيح للكبر، وأنه التكبر على الحق، واحتقار الناس، وصحح المفهوم الخاطئ الذي ربما يعتقده كثير من الناس إلى يومنا هذا إذ يعتبرون الاهتمام بالمظهر من الكبر، وليس هو منه، بل هو مما يحبه الله تعالى، ولا يتنافى مع خلق التواضع.

وقد بلغ من تواضع النبي صلى الله عليه وسلم، ورغبته في جبر خواطر الناس أن قال: "لو دُعيت إلى كراعٍ لأجبتُ، ولو أُهدي إليَّ ذراعاً لقبلتُ".

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب. والإهالة السنخة: تعني الدهن الجامد المتغير الريح من طوال المكث. وعن أنس أن خياطاً دعا النبي صلى الله عليه وسلم لطعام صنعه قال أنس فذهبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الطعام فقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبزاً من شعير ومرقاً فيه دبء وقد يدُّ قال أنس فرأيت رسول الله يتتبع الدبء من حوالي الصفحة.

(9) زهده صلى الله عليه وسلم:

كان صلى الله عليه وسلم أزهّد الناس في الدنيا وأرغبهم في الآخرة خيره الله تعالى بين أن يكون ملكاً نبياً أو يكون عبداً نبياً، فاختر أن يكون عبداً نبياً.

كان ينامُ على الفراش تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى الأرض تارة، وعلى السرير تارة. قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (دخل عمر وناس من الصحابة فانحرف النبي صلى الله عليه وسلم فرأى عمر أثر الشريط في جنبه فبكى فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما يبكيك يا عمر قال: ومالي لا أبكي وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا وأنت على الحال الذي أرى فقال يا عمر: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة قال: بلى. قال: هو كذلك.

وكان من زهده صلى الله عليه وسلم وقلة ما بيده أن النار لا توقد في بيته في الشهر والشهرين، فعن عائشة - رضي الله عنها - أنها كانت تقول لعروة بن الزبير: والله يا ابن أختي كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهله في شهرين ما أوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار، قلت: يا خالة فما كان عيشكم؟ قالت: الأسودان - التمر والماء -. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طويلاً وأهله لا يجدون عشاءً، وكان أكثر خبزهم الشعير). عن أنس بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئاً لغد.

01_ صبر النبي صلى الله عليه وسلم:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يصبر على الأذى فيما يتعلق بحق نفسه، وأما إذا كان الله تعالى فإنه يمتثل فيه أمر الله من الشدة. وهي شدة مطلوبة مع الكفار والمنتهكين لحدود الله، وهي خير رادع لهم وفيها تحقيق للأمن والأمان. قال تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) (الفتح: 29)

ومن صور صبر النبي صلى الله عليه وسلم ما ذكرناه سابقاً من أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما اشتد الأذى به جاءه ملك الجبال يقول: يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً. والأخشبان: جبلا مكة أبو قبيس وقبيعان.

ومن ذلك ما رواه طارق المحاربي قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوق ذي المجاز فمرَّ وعليه جبة له حمراء وهو ينادي بأعلى صوته: "يا أيها الناس!

قولوا: لا إله إلا الله - تفلحوا"، ورجل يتبعه بالحجارة وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه وهو يقول: يا أيها الناس! لا تطيعوه فإنه كذاب؛ قلت: من هذا؟ قالوا: غلام من بني عبد المطلب، قلت: فمن هذا يتبعه يرميه؟ قالوا: هذا عمه عبد العزى - وهو أبو لهب. وعن الحارث بن الحارث الغامدي قال: حججت مع أبي فلما كنا بمنى إذا جماعة على رجل! فقلت: يا أبة! ما هذه الجماعة؟ فقال: هذا الصابئ الذي ترك دين قومه، ثم ذهب أبي حتى وقف عليهم على ناقته، فذهبت أنا حتى وقفت عليهم على ناقتي، فإذا به يحدثهم وهم يردون عليه، فلم يزل موقف أبي حتى تفرقوا عن ملل وارتفاع من النهار، وأقبلت جارية في يدها قرح فيه ماء ونحرها مكشوف، فقالوا: هذه بنته زينب، فناولته وهي تبكي، فقال: "خمري عليك نحر ك يا بنية! ولا تخافي على أبيك غلبة ولا ذلاً

11_ مزاح النبي صلى الله عليه وسلم:

وكان من هديه صلى الله عليه وسلم أن يمزح ولكنه في مزحه لا يقول إلا حقاً. ومن صور ذلك أن امرأة عجوزاً سألته صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله! ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: (يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز، فقلت تبكي. فقال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: {إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرْبًا أَثَرَاباً} [الواقعة 35-37]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه (أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله احملنا على بعير. فقال: أحملكم على ولد الناقة. قال: وما نصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تليد الإبل إلا النوق؟). وقال أنس: وسمعتة صلى الله عليه وسلم يقول لامرأة: "زوجك، ذلك البياض في عينيه؟ قالت: عقرى، ومتى رأيتة؟ قال: وهل من عين إلا وفيها بياض". وعقرى تعني جعلها الله عاقراً لا تلد، يستعملها العرب للدعاء على الشخص، ولا يريدون حقيقة ذلك، بل مثل قولهم: لا أم لك. كناية عن عدم الرضا بالأمر. وعن أنس بن مالك أن رجلاً من أهل البادية يقال له: زاهر بن حرام كان يهدي إلى النبي صلى الله عليه وسلم الهدية فيجهره رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن زاهرا بادينا ونحن حاضروه). قال: فاتاه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه والرجل لا يبصره، فقال: أرسلني، من هذا؟ فالتفت إليه فلما عرف أنه النبي صلى الله عليه وسلم جعل يلزق ظهره ب صدره. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يشتري هذا العبد؟) فقال زاهر: تجدني يا رسول الله كاسدا. قال: (لكنك عند الله لست بكاسد). أو قال صلى الله عليه وسلم: (بل أنت عند الله غال).

21_ حياؤه صلى الله عليه وسلم:

كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحياء، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد حياءً من العذراء في خدرها، وإذا كره شيئاً عُرف في وجهه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب ابنة جحش، دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه ينهياً للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام؛ فلما قام، قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم، ليندخل، فإذا القوم جلوس؛ ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجنبت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا؛ فجاء حتى دخل، فدهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه؛ فأنزل الله قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فأدخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق} {الأحزاب: 53}

وكان صلى الله عليه وسلم يقول: إن لكل دين خلقاً وخلق الإسلام الحياء.

غير أن حياءه لم يكن يمنعه من قول الحق والغضب له إلا إنه لم يكن يواجه أحداً بما يكره، لهذا وصفه الصحابة بأنه صلى الله عليه وسلم كان إذا كره شيئاً عُرف في وجهه إشارة إلى أنه لم يكن يواجه أحداً بما يكرهه بل يتغير وجهه فيفهم أصحابه كراهيته لذلك.

(31) عدل النبي صلى الله عليه وسلم :

عن أبي سعيد الخدري قال : بئنا نحن عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يقسم قسماً أنه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال : يا رسول الله عدل فقال : « وَيَحْكُ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ لَقَدْ خَبِتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلْ ». فَقَالَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْذَنْ لِي فِيهِ أَضْرِبُ عَنْقَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "دَعُهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْفَرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَفْرَعُونَ الْقُرْآنَ لَا يَجُوزُ تَرَاقِيهِمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ (...).

ومن صور عدله صلى الله عليه وسلم وإقامته لشرع الله تعالى ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه، فأرسلت إليه إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فصربت التي هو في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة، فانفلقت، فجمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: غارت أمكم، [غارت أمكم]، ثم حبس الخادم، حتى أتني بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفعتها إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرتها» وقال عليه الصلاة والسلام في قصة المرأة المخزومية التي سرقت : (والذي نفسي بيده لو كانت فاطمة بنت محمد، لقطعت يدها).

(41) أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مع أهله :

كان صلى الله عليه وسلم خيراً للناس لأهله، وقد تمثل ذلك في طيب كلامه، وحسن عشرته لزوجاته وبإكرامه واحترامه لمشاعره، قال عليه الصلاة والسلام: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي). وكان من كريم أخلاقه صلى الله عليه وسلم في تعامله مع أهله وزوجه أنه كان يتودد إليهن، ويرأف بهن، ويمارجهن، تروي السيدة عائشة رضي الله عنها أنها كانت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر وهي جارية فقال لأصحابه: "تقدموا" فنقدموا ثم قال: "تعال أسابك". فسأبتة فسأبتة على رجلى فلما كان بعد خرجت أيضاً معه في سفر فقال لأصحابه تقدموا ثم قال: "تعال أسابك". ونسيبت الذي كان وقد حملت اللحم فقلت وكيف أسابك يا رسول الله وأنا على هذه الحال فقال: "لتفعلن". فسأبتة فسأبتة فقال: (هذه بتلك السبقة).

وتروي السيدة الطاهرة عائشة أم المؤمنين أيضاً فتقول: والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي والحيشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسترنني بردائه لكي أنظر إلى لعبهم ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن حريصة على اللهو). وتقول في عمل النبي في بيته: (كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج إلى الصلاة). وتقول أنه صلى الله عليه وسلم: (كان يخيظ ثوبه ويخصف نعله ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم). ومن دلائل احترامه الكبير، وحبه الشديد لزوجته خديجة رضي الله عنها، إن كان يذبح الشاة ثم يهديها إلى صديقاتها، وذلك بعد مماتها.

(51) أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مع الأطفال :

كان صلى الله عليه وسلم يمر بالصبيان فيسلم عليهم، ويظهر محبته لهم. وكان من شفقتة عليهم أنه إذا سمع بكاء الصبي وهو يوم الناس في صلاة الجماعة أن يسرع في صلاته ويخففها، لئلا تفتن أمه. وكان صلى الله عليه وسلم يحمل ابنة ابنته (أمامة بنت زينب) وهو يصلي بالناس، إذا قام حملها وإذا سجد وضعها. وجاءه الحسن والحسين رضي الله عنهما وهو يخطب في الناس فجعل يمشيان ويعثران فنزل النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر فحملهما حتى وضعهما بين يديه. وعن عائشة رضي الله عنها قالت : جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ : أَتَقْبَلُونَ الصَّيَّانَ فَمَا نُقْبَلُهُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَوَأَمَلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ".

(61) أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مع الخدم :

كان النبي صلى الله عليه وسلم لطيفاً رحيماً في تعامله مع خدمه إلى أبعد الحدود، فعن أنس رضي الله عنه قال " خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين، والله ما قال أف قط، ولا قال لشيء لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا). وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: (ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خادماً له ولا امرأة ولا ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله).

71) هديه صلى الله عليه وسلم في الرفق بالحيوان:

كان النبي صلى الله عليه وسلم رقيقاً بالحيوان، ويوصي أتباعه بذلك، فعن شداد بن أوس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى كتب الإحسان على كل شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته).

ولما مرَّ ابن عمر رضي الله عنهما ببعض فتیان قريش وقد نصبوا طائراً غرضاً، ليرموه بالنبل، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئةٍ من نبلهم! تفرق أولئك الفتية لما رأوا ابن عمر خوفاً من إنكاره وغضبه، فقال ابن عمر من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دخلت امرأة النار في هر ربطته فلا هي أطعمته ولا هي أرسلته يأكل من خشاش الأرض حتى مات ويشهد على ذلك أبو بكر وعمر... وبيننا رجل راكب بقرة التفتت إليه فقالت: إني لست لهذا خلقت إنما خلقت للحرث، ويشهد على ذلك أبو بكر وعمر.

❖ **وختاماً نقول:** إن هذه الصور لم تكن سوى غيض من فيض عن أخلاق الحبيب محمد صلوات ربي وسلامه عليه، وإن المجلدات

العظام لن تحيط بوصفها. إن البشر مهما قالوا، ومهما كتبوا عن أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم فلن يبلغوا ثناء الله عليه وعلى أخلاقه. إن إلهنا العظيم عندما يصف خلق الحبيب بأنه عظيم {وإنك لعلى خلقٍ عظيم}، فماذا عسى أن يبلغ وصف البشر لأخلاقه صلى الله عليه وسلم عليه.

غير أن الذي يجب أن لا نغفل عنه هو السعي في إحياء هذه الأخلاق النبوية في حياتنا، فنتحلى بها، ونربي عليه أولادنا، وندعو إليها بين المسلمين، بل نسعى لنشرها بين غير المسلمين، خصوصاً في هذا الوقت الذي كادت الأخلاق الحميدة والمثل العليا أن تختفي من حياة الناس، وأصبحت المادة والمصلحة هي الغاية القصوى من الوجود، إن البشرية اليوم ظامنة، وهي بأمس الحاجة إلى إحياء هذه القيم السامية في واقع حياتها. إننا حين نعرف الآخرين بمحمد عليه الصلاة والسلام، من هو؟ ولماذا نتخذه أسوة ومثلاً في حياتنا؟ نكون قد قدمنا لهم وللإسلام أعظم خدمة يمكن تقديمها اليوم.

نسأل الله أن يخلقنا بأخلاق نبيه الكريم، وأن يعيننا على نشرها والدعوة إليها.

المحاضرة الثامنة

أخلاق المهنة ومدى الحاجة إلى دراستها

❖ تعريف المهنة:

المهنة لغة: بكسر الميم وفتحها، والفتح أشهر. وتطلق على بذل النفس في الخدمة والحقق فيها. وبهذا المعنى ورد قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم جمعه سوى ثوبين مهنته). أي سوى ثوبي الخدمة والعمل، إذ إن ثوب الخدمة والعمل يكون مبتدلاً ولا يسان، ولا تتم المحافظة على نظافته. وبهذا المعنى أيضاً ما ورد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حين سئلت عن ما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصنع في بيته؟ فقالت: "كان يَكُونُ فِي مَهْنَةٍ أَهْلُهُ تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ حَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ". وفي حديث آخر قالت: "كان يفعل ما يفعل أحدكم في مهنة أهله، يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويرقع دلوه".

وتطلق المهنة في اللغة أيضاً على الحذق والمهارة في العمل أو الحرفة التي يمتنها صاحبها. وفي الاصطلاح المعاصر تطلق المهنة على مجموعة من المعارف العقلية ومجموعة من الممارسات والخبرات التدريبية، يؤديها الفرد من خلال ممارسته للعمل. أو هي: عمل يحتاج إلى معارف عقلية وخبرة ميدانية. كالطب، والهندسة، والتدريس، والمحاسبة.

❖ مرادفات لفظ المهنة:

1 - الحرفة:

هناك ألفاظ قريبة في معناها من المهنة وربما التبست بها، كالحرفة والصناعة والعمل والوظيفة .. وفيما يلي بيان لمعانيها وأوجه الفرق بينها:

الحرفة: وهي لغةً بالكسر؛ الصناعة أو وسيلة الكسب التي يرتزق منها المرء بصفة مستمرة، من زراعة أو صناعة أو تجارة، وتحتاج إلى تدريب قصير. وسميت بذلك لأنه مُنْحَرَفٌ إليها. ويقال حِرْفَتُهُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا: أي؛ دأبه ودينه. والاحتراف: هو الاكتساب. وليس للاحتراف معنى اصطلاحياً خارج عن المعنى اللغوي. وغالباً ما تستعمل في الأعمال اليدوية سواء كانت بالآلة أو بغير آلة. من ذلك ما ورد أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما استُخْلِيفَ، وكان تاجراً، فأراد أن يخرج لتجارته، فقال له عمر: إلى أين؟ قال: أحترف لأهلي. قال: ومن لمصالح المسلمين وإدارة شؤونهم. أرجع ويُصرف لك من بيت المال حاجتك، فرجع فجعلوا له ألفين. فقال: زيدوني فإن لي عيالاً، وقد شغلتموني عن التجارة، فزادوه خمسمائة. وقال أبو بكر رضي الله عنه "لَقَدْ عَلِمَ قَوْمِي أَنَّ حِرْفَتِي لَمْ تَكُنْ تَعْجِزُ عَنْ مَوْتَةِ أَهْلِي، وَشَغَلْتُ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَسَيَأْكُلُ أَلْ أَبِي بَكْرٍ مِنْ هَذَا الْمَالِ، وَيَحْتَرِفُ -أي أبو بكر - لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ". فعمل أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه كان في التجارة، وقد سماه حرفة.

2 - العمل:

العمل لغةً: يُطلق على المهنة، وعلى الفعل. والفارق بينه وبين كل من المهنة والحرفة:

- أن العمل قد يكون من الإنسان أو الحيوان، والحرفة لا تكون إلا من الإنسان. فالثور الذي يحرث الأرض يعمل، والطائر الذي يبني لنفسه عشاً يعمل، ولكن لا يُقال إنه محترفٌ أو ذو مهنة.
- العمل قد يكون ذهنياً، وقد يكون بدنياً، وأما الحرفة فالغالب أنها تُطلق على الأعمال اليدوية.
- العمل يستعمل للمرة الواحدة ولأكثر، ولا يحتاج إلى التدريب، بخلاف المهنة أو الحرفة فلا بد فيها من بعض التدريب والاستمرارية.

3 - الصناعة:

الصناعة لغةً: ترتيب العمل وإحكامه على النحو الذي تعلمه، وبما يوصل إلى المقصود منه. فيقال للنجار صانع، ولا يقال للتاجر صانع؛ لأن النجار قد سبق علمه بما يريد عمله من سرير أو باب، وكذا سبق علمه بالأسباب التي توصله إلى المقصود منه، وأما التاجر فلا يعلم إذا اتجر هل سيصل إلى ما يريده من الربح أم لا؟.

الفرق بين الصناعة والعمل: يمكن تلخيص أوجه الفرق بين الاثنين فيما يأتي:

- العمل يُطلق على ما يصدر من الإنسان أو الحيوان، بينما لا تُطلق الصناعة إلا على ما صدر من الإنسان.
- العمل لا يتطلب العلم بما يعمل له، بخلاف الصناعة فإنها تتطلب العلم والمهارة، بل إن الصناعة لا تُطلق إلا على ما كان بإجادة، وفيه معنى الحرفة.
- الصناعة أخص والعمل أعم. وكل صناعةٍ عملٌ، وليس كل عملٍ صنعةً.

4 - الوظيفة:

الوظيفة لغَةً: ما يقدر من عمل أو طعام أو رزق في زمن معيّن، وتأتي أيضاً بمعنى الخدمة المعيّنة. وفي الاصطلاح المعاصر: تطلق على وحدة من وحدات العمل، تتكون من عدة أنشطة مجتمعة مع بعضها في المضمون والشكل، ويمكن أن يقوم بها موظف واحد أو أكثر. كالمحاسبة في شركة مثلاً فإنها وظيفة، تحتوي على مجموعة من الأنشطة من جمع البيانات والفواتير، وتصنيفها وإدخالها في الحاسوب، وجمعها، وإجراء المقابلة والمقاصة بين الوارد والصادر منها ثم إخراج النتيجة النهائية لليوم، ثم للشهر، ثم للسنة، وهكذا... وقد يكون للشركة محاسب واحد أو مجموعة من المحاسبين.

❖ خصائص المهنة:

للمهنة جملة من الخصائص أهمها:

- 1 - تقديم خدمات أساسية ومفيدة للمجتمع.
- 2 - حاجتها إلى الإعداد العلمي من خلال برامج ذات أهداف محددة وواضحة، ومن جهات علمية معترف بها.
- 3 - لكل مهنة معارف ومهارات خاصة بها.
- 4 - لكل مهنة قوانين وآداب تنظمها، وتحكم العمل بها.
- 5 - غالباً ما يوجد في وقتنا الحالي تجمع للعاملين بالمهنة يتحدث باسمها ويدافع عنها كالتقانات والجمعيات.
- 6 - لكل مهنة معالمها الواضحة التي تميزها عن غيرها من المهن.

❖ الحكم الشرعي للمهنة:

إن من يقرأ في كتاب الله تعالى، أو في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، يجد أن الإسلام يحث على العمل، ويرفع من شأنه. كما أن من يقرأ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم العطرة، أو غيره من الأنبياء، أو يقرأ في سير الخلفاء الراشدين، أو الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، أو في سير سلف الأمة وأئمتها، يجد أنهم جميعاً قد مارسوا مختلف المهن من تجارة ورعي وزراعة وخطابة وحدادة وغيرها. من ذلك مثلاً:

قول الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام: [وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ] {الأنبياء: 80} واللبوس: الدروع.

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده).

وقوله: (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة).

ويقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "كان آدم عليه السلام حراثاً (زرعاً)، وكان إدريس خياطاً، وكان نوح نجاراً، وكان هود تاجراً، وكان إبراهيم راعياً (و ورد بزراً أي تاجراً يبيع الملابس)، وكان داود زراداً (أي حداداً)، وكان سليمان خواصاً، وكان موسى (راعياً) أجيراً، وكان عيسى سياحاً، وعمل محمد صلى الله عليه وسلم في التجارة والرعي كما أخبر عن نفسه صلى الله عليه وسلم".

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إنني لأرى الرجل فيعجبني، فأقول: هل له حرفة؟ فإن قالوا: لا؛ سقط من عيني". وفي هذا القدر كفاية، إذ ليس الغرض الحصر والاستقصاء. فهذه النصوص - وغيرها مما في معناها كثير - تدل على مدى حث الشريعة على العمل، وعلى مدى إعلائه من شأنه.

❖ تعريف أخلاق المهنة:

نعني بأخلاق المهنة تلك التوجيهات النابعة من القيم والمبادئ التي يؤمن بها أفراد المجتمع، والتي ينبغي للشخص أن يتحلى بها أثناء ممارسته للمهنة.

الفرق بين أخلاق المهنة وأنظمتها: ذكرنا آنفاً تعريف أخلاق المهنة، وأما أنظمتها فتُعرّف بأنها تلك القوانين والتشريعات التي تحدد وتنظم عمل الممارسين للمهنة. وهذا يعني:

- أن أخلاق المهنة تهتم بما ينبغي فعله، وبما يُجمل صورته أمام الآخرين، ويكسبه احترامهم، وأما أنظمة المهنة فتهم بما يجب فعله.
- إن من يخالف أخلاق المهنة يستحق اللوم والعتاب، وأما من يخالف أنظمتها فإنه يستحق العقوبة الزاجرة أيضاً، ولا يكتفى معه باللوم والعتاب.

❖ مصادر أخلاق المهنة:

نصوص الشريعة كتاباً وسنةً هي مصدر التكاليف الشرعية عامةً بما فيها الجانب الأخلاقي، وأخلاق المهنة بصفحتها تمثل جانباً من جوانب السلوك الأخلاقي، فإن مصدرها أيضاً هو الشرع، وقد جاءت الشريعة لتأخذ بيد الإنسان إلى الحياة الهانئة الطيبة الآمنة السعيدة، وليعيش في ظلال الإيمان الوارفة، ومن ثم كانت تحثُ على كل فضيلة، وعلى كل ما هو من مكارم الأخلاق، وعلى إتقان العمل، وعلى بذل النصيحة للآخرين والسعي فيما ينفعهم، وعلى مراقبة الله عز وجل في كل شؤون الحياة. ونصوص الشرع في ذلك كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال: قول الله تعالى: [مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] [النحل: 97] وقوله تعالى: [قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] [المائدة: 15 - 16]، فهذه الآيات وغيرها كثير، تؤكد أن الحياة السعيدة الهانئة الطيبة إنما هي في اتباع شرع الله، وليس غيره، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). وكون الشرع مصدر أخلاق المهنة لا يعني المنع من الاستفادة مما هو متوافر لدى الآخرين من غير المسلمين من أنظمة وتشريعات وإجراءات وأساليب نافعة ومفيدة في هذا الباب، ما لم تكن مصادمةً للشرع، فالحكمة ضالة المؤمن، وحيثما وجدها أخذها، وكان أحق بها.

❖ مدى الحاجة إلى دراسة أخلاق المهنة:

لكل مهنة أخلاق وآداب عامة تحدها القوانين واللوائح الخاصة بها، ومن خلال مراعاتها تتم المحافظة على المهنة ومكانتها. وكثيراً ما تجمع هذه الآداب والأخلاق في عصرنا هذا في وثيقة واحدة، يطلق عليها ميثاق الشرف المهني. ومن المعلوم أن مجموع المهن في المجتمع (كالتدريس والقضاء والطب والهندسة والمحاسبة وغيرها) هي الأداة المنفذة لأهداف وتطلعات أبناء المجتمع، فإذا فقد العاملون فيها آداب وأخلاق مهنتهم، كان ذلك نذير شؤم عليهم، وعلى مجتمعهم، وكان دليلاً على قرب نهايتهم، فكما يقول الشاعر:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا

ونظراً لاتساع سلطان العلم في عصرنا هذا وما رافقه من تقنيات مذهلة في معظم مجالات الحياة، ولأن مجالات العمل قد تضاعفت أضعافاً كثيرة عن العصور السابقة، فقد أصبحت الحاجة إلى أخلاق المهنة أكثر إلحاحاً، وأشد ضرورةً تلافياً لما يمكن أن يوجه إليه المهنة من الاستغلال السيئ من قبل بعض المنحرفين، ومرضى النفوس، فتصبح وسيلة للإفساد والتدمير والعبث بمصير البشرية، ولا أدل على ذلك مما نجده في أيامنا هذه من العبث بالجينات الوراثية للمواد الغذائية (كالحبوب المعدلة وراثياً) وإدخال كثير من المواد الكيميائية في تركيبة الأغذية على الرغم من التحذيرات الطبية العالمية من كونها مواد مسرطنة أو ضارة بالإنسان أو بالبيئة، ومثل ذلك الاستنساخ والعبث بخلقه بعض الحيوانات

وجعلها قطع غيار، والسعي بعد ذلك للعبث بخلق الإنسان، وكذلك التنافس المحموم بين كثير من دول العالم في تصنيع القنابل النووية، إلى الصواريخ العابرة للقارات، إلى غزو الفضاء من خلال أقمار التجسس ... وهكذا.

وهذه الأمور التي هي على درجة كبيرة من الخطورة ليس على البشرية فحسب، بل على الكون برمته بكائناته الحية وجماداته، دفعت كثيراً من رجال العلم والفكر في العالم للدعوة إلى وضع مواثيق شرف أخلاقي تخص كل مهنة من المهن، ويكون من شأن هذا الميثاق حماية سمعة المهنة، والمحافظة عليها من الانحراف والاستغلال. وقد تمت الاستجابة لهذه الدعوات ووضعت كثيراً من المواثيق في البلدان المختلفة، انطلاقاً من قيم البلد ومبادئه، ومن هنا كانت الحاجة إلى دراستها والوقوف عليها، وإن كان ذلك من خلال الخطوط العريضة لها.

❖ صفات الميثاق الأخلاقي:

لكي يحقق الميثاق الأخلاقي أهدافه يجب أن يتصف بما يلي:

- 1 - أن تكون مواده منسجمة مع قيم المجتمع ومبادئه.
- 2 - أن تكون مختصرة.
- 3 - أن تكون سهلة وواضحة.
- 4 - أن تكون معقولة ومقبولة من الناحية العملية.
- 5 - أن تكون شاملة.
- 6 - أن تكون إيجابية.

وسيكون لنا في المحاضرة الأخيرة بمشيئة الله وقفة مع أنموذج من هذه المواثيق.

المحاضرة التاسعة

الأخلاق الجامعة للمهنة

❖ التمهيد:

للمهنة عناصر أربعة هي: العامل ورب العمل والمستفيد والمجتمع. ويُقصد بأخلاق المهنة هنا تلك الصفات التي تنشئ الكمال في هذه العناصر الأربعة. ولما كانت ممارسة المهنة تتم في إطار التزام قانوني أو تعاقدية فإنه غالباً ما يشتمل هذا القانون أو العقد على بعض الخصال باعتبارها التزاماً واجباً. ومن ثمّ فإننا سنستبعد هذه الخصال عن محل البحث. كما سنستبعد الأخلاق العامة كبر الوالدين والإحسان للجار بل سنقتصر على ما له صلة بكمال المهنة كما أسلفنا. وسنجمع هذه الأخلاق (أخلاق المهنة) في خمس مجموعات هي: الطهارة المهنية، الاستقامة المهنية، التعاون المهني، الأمانة المهنية، المحبة المهنية.

❖ الطهارة المهنية:

الطهارة لغة: مصدر يدلّ على النقاء والنظافة وزوال الدنس والتنزّه. مصدرٌ من طَهَرَ يَطْهُرُ، وتعني النظافة والنقاء والتنزّه عن الأقدار، حسية كانت تلك الأقدار أو معنوية. والظاهر هو: البرئ من العيوب، وهو النزيه، والشريف. والطهارة في الاصطلاح: لا تخرج عن المعنى اللغوي. وفي الشرع: تطلق على غسل أعضاء مخصوصة بصفة مخصوصة (أي رفع الحدث الأصغر أو الأكبر)، أو إزالة نجاسة وهي على ضربين: طهارة حسية، وطهارة معنوية.

- الطهارة الحسية: وتتحقق برفع الحدث أو إزالة النجس أو ما في معناهما وعلى صورتها.
- الطهارة المعنوية: وتتحقق بترك الذنب وتنقية النفس من العيوب.

ويدخل تحت هذا الضرب الأخير أيضاً الطهارة المهنية. أي؛ تطهيرها وتنزيهاها عن النقائص. ويتحقق ذلك من خلال المحافظة على أمرين:

- 1) السمعة الطيبة: وذلك من خلال التنزه والتطهر للمهنة من قبل من يقدمها.
- 2) جودة الأداء: وذلك من خلال تنزيه المهنة نفسها عن العيوب والنواقص.

❖ شروط الطهارة المهنية:

يشترط في المهنة لتتصف بالطهارة أن تتوافر فيها ما يأتي:

- 1 - أن يكون كل من العامل ورب العمل صاحب صفحة بيضاء في سجل المهنة، ويحرص على استمرارها كذلك (شهادة حسن سلوك). فلو عرف عن قاض قبوله للهدية تلوّثت صفحته المهنية، ولو عرف عن طبيب تتبعه لعورات النساء تلوّثت صفحته المهنية ... وهكذا الموظف الذي يرتشي، والتاجر الغشاش.
 - 2 - أن يلتزم كل من طرفي المهنة العامل ورب العمل بالقواعد المنظمة لممارستها، فرب العمل يحصل على ترخيص مزاولة المهنة قبل ممارستها، ولا يتعاقد مع غير المستوفين لشروط التعيين (من مثل السن القانونية والمؤهل الدراسي وغيرها) وإلا تلوّثت صفحته المهنية. والعامل يكون حاصلاً على المؤهل الدراسي في المهن التي تشترطه كالطب والصيدلة مثلاً.
 - 3 - أن يكون لدى العامل خبرة كافية في الأعمال التي يستلزم ممارستها تلك الخبرة كالعلاقات الجراحية مثلاً فلا يقوم بها إلا ممارس، وكالمناقصات أو المزايدات الكبيرة فلا يقوم بها عامل مبتدئ، وكإنتاج المصنوعات التي تحتاج إلى تقنية عالية فلا يشرف عليها إلا خبير.
 - 4 - أن يشتهر عن صاحب المهنة (سواء أكان عاملاً أو رب عمل) الحرص على الإتقان وعدم إجازة المنتج إلا في درجة عالية من الجودة.
- فإذا افتقد أي شرط من هذه الشروط كان ذلك مسألاً بخلق الطهارة المهنية.

❖ التوجيه الفقهي لخلق الطهارة المهنية:

لا تقوم مهنة معتبرة بغير طهارة، ومن ثمَّ كان الحد الأدنى من هذه الطهارة ضرورة لازمة، لعدم قيام المهنة إلا به. وهو ما استلزم مع مرور الزمن وتطور الأحوال صدور القوانين المنظمة للمهن، كما تطَّلب وضع صيغ للعقود تتضمن نصوصاً في شكل بنود إلزامية مباشرة، أو غير مباشرة كالإحالة إلى عرف ونحوه، فتحوّلت تلك الصفات الأخلاقية الحميدة من كونها أخلاقاً كريمة إلى التزام يوجب مخالفته مساءلة قضائية بعد أن تم النص عليها.

ولما كان من غير الممكن الإحاطة بخصال الطهارة المهنية من خلال تلك القوانين والعقود، كان الحد الزائد عن الواجب هو المراد بخصال الطهارة المهنية، وهو الذي يدخل في أخلاق وآداب المهنة، ويترتب على الإخلال بها المساءلة الأخلاقية دون القضائية.

وهنا يجب علينا أن ننبه لأمرين:

- **أولهما -** لكل مهنة ما يناسبها من أخلاق الطهارة المهنية، فما هو مطلوب لمهنة القضاء قد يختلف عن ما هو مطلوب لمهنة الطب أو الصيدلة أو التجارة وهكذا. وما يلزم للقاضي للحفاظ على سمعته الطيبة، يختلف عن الذي يلزم للطبيب، أو للتاجر، ويقال الشيء نفسه عن آداب ممارسة المهنة.
- **ثانيهما -** المقصود هنا ما يؤثر على سمعة المهنة وطهارتها، وليس الأوجه التي لا شأن لها بالمهنة كسمعته بين أهله أو لدى جيرانه مثلاً.

❖ أدلة الطهارة المهنية:

يدل لخلق الطهارة المهنية آيات عديدة من كتاب الله وأحاديث كثيرة من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، منها:

- 1 - قول الله تعالى: {صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} {النمل: 88} والإتقان والجودة معنى من معاني الطهارة المهنية.
- 2 - ومنها قوله تعالى: {ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد}،
- 3 - ومنها: {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً} وغيرها كثير.
- 4 - قوله عليه الصلاة والسلام: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه). وهذا في معنى الآية السابقة من حيث الدلالة على طلب الإتقان في العمل، وجودة الأداء.
- 5 - وقوله عليه الصلاة والسلام: (مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكبر...). فيه الدلالة على أهمية السمعة الطيبة والسلوك القويم، وهو من معاني الطهارة المهنية كما تقدم،
- 6 - وقوله عليه الصلاة والسلام: (من غش فليس منا).

❖ مظاهر الطهارة المهنية عند الفقهاء:

تكلم الفقهاء عن الطهارة المهنية التي تعني السمعة الطيبة، والسيرة الحميدة، وجودة الأداء والإتقان. ولنأخذ أمثلة من باب القضاء على سبيل التمثيل والبيان وليس الحصر:

- قال الفقهاء ببطلان تولية الفاسق القضاء لاجوز تولية الفاسق القضاء مع وجود العادل للحفاظ على سمعة القضاء وسمعة القاضي، ولتحقيق جودة الأداء في الحكم، ولا يخفى أنهما من خصال الطهارة المهنية.
 - وقال الفقهاء يحرم تولية الجاهل القضاء محرم مع وجود العالم للحفاظ على جودة الأداء وهي من خصال الطهارة المهنية.
 - كراهة تولية المفضول القضاء مكروه مع وجود الفاضل (أو الأفضل) للحفاظ على جودة الأداء أيضاً.
- ومثل هذه المسائل نجدها أيضاً في باب الإمامة في الصلاة، وفي الولاية في النكاح، وفي الولاية على المال للقصر (من مجانين وسفهاء وبنات)، وفي ناظر الوقف، وفي ولاية الحسبة وغيرها.
- ومن هذا الباب ما نجده من طلب جهات التعاقد شهادة حسن السلوك من الطالب والمدرس والموظف، ومنه ما نجده في بعض المواثيق من النص على أنه يفصل من العمل من يرتكب ما يخل بالآداب العامة في مكان الوظيفة، كسرقة مثلاً، أو جريمة تمس الشرف أو الأخلاق أو الأمانة من غير حاجة إلى إعلان. وهكذا.

المحاضرة العاشرة

الاستقامة المهنية

❖ معنى الاستقامة :

الاستقامة لغة: مشتقة من القيام، وتعني الثبات والدوام والملازمة والاستمرار على الشيء، كما أنها تفيد معنى الاعتدال والاستواء. فمن الأول قوله تعالى: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} {التوبة: 7}، أي: فما استمر وثبت أولئك المشركون معكم على العهد، فاستمروا أنتم معهم واثبتوا. ومن الثاني قول النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين خلفه في صلاة الجماعة: (أقيموا صفوفكم). أي اعتدلوا واستووا ولا تختلفوا. والاستقامة المهنية في معناها الاصطلاحي: تعني الاعتدال والاستواء في أداء المهنة من جهة، ومن جهة أخرى ملازمة المهنة والوفاء بمصالحها من الطاعة والمشورة والصدق.

❖ شروط الاستقامة المهنية:

لكي تتحقق الاستقامة المهنية (أي الاعتدال والاستقرار والوفاء بمصالحها) لابد من توافر الشروط التالية:

- 1 - حرص كل واحد من الطرفين على الآخر:** أي أن كل واحد من طرفي العقد (العامل ورب العمل) مطالبٌ بالتحلي بالصفات الأخلاقية الحميدة التي من شأنها أن تغرس في نفس صاحبه الثقة والطمأنينة، وتشعره بحرصه على الاستمرار في التعاقد معه. وقد حث الشرع على هذا، ففي الحديث القدسي يروي النبي عليه الصلاة والسلام عن ربه عز وجل: "أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خانته خرجت من بينهما".
- 2 - مطاوعة الزملاء:** فالثبات والاستقرار والاستمرار في المهنة لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان كل واحد يراعي مشاعر صاحبه، ويحترم رأيه، ويتنازل له عن بعض ما يراه، وفي بيان أهمية ذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم، يوصي به أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل حين أرسلهما إلى اليمن، فيقول لهما: "يسراً ولا تعسراً، وبشراً ولا تنفراً، وتطوعاً ولا تخلفاً".
- 3 - طاعة الرؤساء:** إن طاعة الرؤساء في المهنة ضرورة لا بد منها، وإلا كانت الفوضى، وكان الاضطراب، وكان الإضرار بالمهنة واستقرارها ومصالحها، ومن ثم نجد أن القرآن الكريم يأمر بإطاعة ولاة الأمر فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} {النساء: 59}.
- 4 - عدم التغيب عن العمل إلا في حالات الضرورة:** إذ التغيب عن العمل يضر به، ويتنافى مع مصالحه بلا شك، والعقود أو الأنظمة والقوانين تعاقب على ذلك، غير أن الفرد قد يتغيب لظروف خاصة تواجهه، ويكون معذوراً بها، والمطلوب منه هنا أن لا يتوسع في ذلك، ويجعل مصلحة العمل نصب عينيه، لأنه من مقتضى الوفاء بالعقود، والله سبحانه وتعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} {المائدة: 1}.
- 5 - الالتزام بمنهج الشورى:** الالتزام بمنهج الشورى وخصوصاً في الوظائف التي تصنع السياسات المهنية، وتضع الخطط، مطلب ضروري للاستقامة المهنية، وإلا كان الوقوع في شرك الاستبداد بالرأي، وتحكيم العقل الواحد، والرؤية الواحدة، وهو ما ينعكس سلباً على مصلحة العمل واستقراره، ومن هنا فقد أخبرنا الله أن الشورى من صفات المجتمع المسلم، تنبئها إلى أهمية الالتزام بها، فقال تعالى: {وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} {الشورى: 38}. بل إن الله سبحانه أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالشورى، فقال تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} {آل عمران: 159} وإذا كان النبي وهو المعصوم والمسدد بالوحي مطالباً بالشورى، فكيف بغيره؟! لا شك أنه مطالبٌ به من باب أولى.
- 6 - الالتزام بالصدق:** الالتزام بالصدق ضرورة لابد منها لتحقيق الاستقامة المهنية، إذ لا يمكن للمهنة أن تستقر وتستمر وتتحقق مصالحها من غير الاتصاف بالصدق، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} {التوبة: 119}.

❖ التوجيه الفقهي لخلق الاستقامة المهنية:

ما أسلفناه في حديثنا عن الطهارة المهنية من ضرورة توافر الحد الأدنى منها يقال هنا أيضاً وفي كل خصال أخلاق المهنة، فالحد الأدنى لا بد منه، وقد نصت القوانين والعقود عليه، فخرج من مجرد خصال أخلاقيات إلى واجبات ملزمة يترتب على الإخلال بها مسؤولية قضائية، غير أن القوانين والعقود لا تستطيع أن تفي بكل خصال الاستقامة المهنية، لأن العقود تستحدث باستمرار والوقائع تتجدد دائماً، فكان الناس بحاجة إلى المزيد من هذا الخلق، بحيث يتحقق المقصد من هذا الخلق.

وننبه هنا أيضاً إلى ما أسلفناه في خلق الطهارة المهنية من أن:

- 1 - الاستقامة المهنية تختلف في بعض جوانبها من مهنة إلى أخرى، أي أن الاستقامة المهنية المطلوبة من القاضي تختلف في بعض جوانبها عن المطلوبة من الطبيب أو التاجر أو المدرس.
- 2 - كما أننا لا نبحث هنا إلا في الاستقامة ذات العلاقة بالمهنة وما يؤثر فيها، ولا شأن لنا بعلاقاته الأسرية أو الاجتماعية.

❖ أدلة الاستقامة المهنية:

دللت آيات وأحاديث كثيرة على طلب هذا الخلق من المسلم من ذلك:

- 1 قوله تعالى: [فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] {هود: 112} فالآية تطلب الاتصاف بهذا الخلق صراحة من الرسول ومن معه من المؤمنين، وهي عامة، ويدخل فيها الاستقامة المهنية لأنها فرع عنها. وفي هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم لسفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه حين جاء إليه يقول: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ قَالَ : قُلْ : (أَمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْتُ).
 - 2 قوله تعالى في صفات عباد الرحمن: [وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا] {الفرقان: 67} أي اعتدلوا من غير إفراط ولا تفريط، وهذا من خلق الاستقامة.
 - 3 قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ] {التوبة: 119} ، وكذا ما ورد في طاعة ولاة الأمر والتزام منهج الشورى وقد تقدمت تلك الآيات، كما أنها جميعاً قد تأكدت بالأحاديث الواردة في معناها والتي تدل على طلب هذه الخصال الخلقية. ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم (ما خاب من استخار ولا ندم من استشار) (وعليكم بالسمع والطاعة وإن أمرَ عليكم عبد حبشي ..) وغيرها كثير.
- يضاف إليها أنها جميعاً قد تأكدت بأحاديث شريفة واردة في معناها تدل على طلب تلك الخصال الخلقية من ذلك:
- 1 قول الرسول صلى الله عليه وسلم لسفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه حين جاء إليه يقول : يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: "قُلْ :أَمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْتُ" فقد أمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالاستقامة من غير تخصيص بجانب معين من جوانب الحياة، فيكون شاملاً ومستغرقاً لجميعها.
 - 2 قول الرسول صلى الله عليه وسلم "اسمعوا وأطيعوا، وإن أمر عليكم عبد حبشي ما أقم فيكم كتاب الله". و هو يدل على وجوب طاعة الرئيس ، و إن لم يكن يراه أهلاً لذلك المنصب.

❖ مظاهر الاستقامة المهنية عند الفقهاء:

تكلم الفقهاء عن مظاهر الاستقامة في بعض المهن كالحكم والقضاء والمعاملات المالية، وحذروا من الخصال التي تتنافى مع خلق الاستقامة المهنية، وفيما يلي ذكر لبعض هذه المظاهر:

1 - العدل في المعاملات المالية:

الأصل في المعاملات المالية أنها تقوم على التراضي بين طرفي العقد، والأصل في الطرفين أنهما عاقلان بالغان راشدان يدركان مصلحتهما، ومن ثم فإن الشرع يتركهما لإرادتهما واتفقهما، ولا يتدخل بينهما، إذ ليست مصلحة أحد الطرفين بأولى من الآخر، إلا أن بعض الأشخاص قد يتعرض للخديعة أو الاستغلال من الطرف الآخر لظروف خاصة، فعندها يتدخل الشرع ليحمي الطرف الضعيف، ومن هذا الباب ما يحصل للمسترسل. والمسترسل هو: الشخص الذي يتصف بسلامة السريرة، وبجهل قيمة السلعة، ولا يحسن المساومة، فيطمئن إلى صدق البائع، ويستسلم له، فيستغل البائع ذلك فيه، فيبيعه بغير فاحش (أي بزيادة كبيرة لا تكون عادة بين المتبايعين، وإنما تحصل هنا استغلالاً لحالة المشتري واسترساله) فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في النهي عن ذلك: "غبن المسترسل حرام"، وفي بعض الروايات: "ربا". أي أن خداعه واستغلاله حرام شرعاً، وأن تلك الزيادة ربا، ولا تحل له. وقد ورد أن أناساً أخبروا النبي صلى الله عليه وسلم عن رجل يُسْتغَلُّ وَيُغَيَّبُ (أي يُخدَع) في بيعه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :

“إذا بايعت فقل لا خلافة”، والخلافة هي الخديعة. أي أنني اشتريت منك بشرط أن لا تكون قد خدعتني ، فإذا تبين أنك قد خدعتني، فلي الخيار في إبطاله. ولا شك أن هذا الخداع وهذا الاستغلال منافٍ للأخوة الإيمانية، وخارجة عن العدل الذي جاء به الشرع، ومصادمة لخلق الاستقامة المهنية.

2 - العدل في المكيال والميزان:

قال تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى...}. فالمطلوب هو العدل بإطلاق، في جميع مجالات الحياة، ومع جميع الناس، مهما اختلف الزمان أو المكان أو الجنس أو الدين. ومن ذلك العدل في المكيال والميزان، فقد ورد التأكيد عليه في أكثر من موضع في القرآن الكريم، لأهمية المال وخطورته، وتطلع النفوس إلى المزيد منه، بل إن سورة من سور القرآن الكريم سميت باسم المطففين، أي المتلاعبين بالمكاييل والموازين، فحذرت من هذا الفعل أشد التحذير، وخوفتهم من المصير الأليم الذي ينتظرهم في القيامة. قال تعالى: {ويل للمطففين، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون، ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين} فالعدل من خلق الاستقامة المهنية، والتطيف في المكاييل والموازين ينافيه، ويجب الابتعاد عنه.

3 - الالتزام بمتطلبات المهنة وبأدائها على وجهها المطلوب:

أجمع الفقهاء على وجوب الالتزام بأداء المهنة على وجهها المعروف في صور المعاولات المالية ، وعدم الإخلال بمتطلباتها اللازمة؛ لقولة تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} {المائدة: 1} ولا يخفى ما لهذا من أثر طيب وإيجابي على تحقيق الثبات والدوام والاستقرار للمعاملات، وهي من خصال خلق الاستقامة المهنية

4 - الشورى:

ويمكن تعريف الشورى بأنها مراجعة الآخرين من أهل الاختصاص والخبرة ؛ لأخذ رأيهم في الموضوع الذي ينظر فيه، ثم العمل بموجبه. وهي من خصال خلق الاستقامة المهنية، ومطلوبة بصورة أكيدة كما أسلفنا في الشروط. قال تعالى مخاطباً نبيه: {وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله}، وقال تعالى: {وأمرهم شورى بينهم}، ومن يقرأ في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أو سير خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم يقف على صور كثيرة منها، ومن وقائع متنوعة في السلم والحرب، في القضاء والإدارة والتشريع، وكلها تجسد مبدأ الشورى الذي كان يلتزم به الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون رضوان الله عليهم في حياتهم.

وفي هذا القدر من الأمثلة كفاية للتدليل على أهمية هذا الخلق في الدين والدنيا

المحاضرة الحادية عشرة

التعاون المهني

❖ خلق التعاون المهني:

❖ تعريف التعاون المهني:

التعاون لغة هو المساعدة، من عاونه وأعانه إذا ساعده. والمعاون هو المساعد. والمعونة هي: المساعدة.

والتعاون المهني في معناه الاصطلاحي يعني: المساعدة على أداؤها.

أي المساعدة في إيجاد المهنة بروح الفريق الواحد، وما يستلزمه ذلك من تسييد معاني الأخوة والاحترام وسياسة الصبر، ثم الارتقاء إلى مراتب التناصح والتنافس.

أي أن على أصحاب المهنة أن يسعوا في واقعهم إلى تحقيق أمرين اثنين هما:

- تسييد معاني الأخوة والاحترام وسياسة الصبر بين أطراف المهنة من عاملين وأرباب عمل أو رؤساء.
- الارتقاء إلى درجات التناصح والتنافس باعتبارها ثمرة لتسييد معاني الأخوة والاحترام وسياسة الصبر.

❖ شروط التعاون المهني:

لابد لتحقيق معاني الأخوة والاحترام والصبر والتناصح والتنافس من توافر الشروط التالية:

1 - استحضار معنى الأخوة مع زملاء المهنة

قال تعالى: {إنما المؤمنون أخوة} وهذه أولى وأهم الشروط لتحقيق التعاون المهني، إذ تكاد الشروط الأخرى تكون نابعة، ومتفرعة عن هذا المعنى، فالأخوة تستلزم المحبة والسماحة والنصح وغيرها، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم تلك المعاني في قوله: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه".

2 - إنكار الذات والترفع عن الأنا

من ضرورات التعاون المهني، ويقدر ما يستطيع المرء التخلص منها، يكون استعداده للتعاون أكبر، ويكون محبته للخير للآخرين أعظم، وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك دليلاً على استكمال الإيمان فقال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه".

3 - السماحة في المنهج

كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (رحم الله عبداً سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى سمحاً). فالسماحة وكرم النفس من ضرورات التعاون المهني، ومن دواعي التسامح، والتباغض، والتدابير.

4 - الصبر على المكاره فمن غير الصبر لا يمكن أن يتحقق التعاون المهني، إذ لا بد أن يجد كل واحد من زميله أموراً لا تعجبه،

فإن لم يوطن نفسه على الصبر، كان الصدام

لقوله تعالى: {إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزُّمَر: 10]

5 - بذل النصيحة

لقوله صلى الله عليه وسلم: (الدين النصيحة. قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم). فالتعاون يستدعي بذل النصيحة ضرورة

6 - المنافسة الشريفة

التنافس الشريف فيما هو لصالح المهنة ولما فيه خيرها أمر مفيد ومطلوب، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (من قتل قتيلاً فله سلبه). وما ذلك إلا للتشجيع والمنافسة والحث على المزيد من البلاء في المعركة.

❖ التوجيه الفقهي لخلق التعاون المهني:

كما أسلفنا في الخصال السابقة (الطهارة المهنية والاستقامة) فإن الحد الأدنى من هذا التعاون أيضاً ضروري وإلزامي بنص القانون أو العقد، والإخلال به يستوجب مسؤولية قضائية، ويبقى ما فوقه مطلوباً من جهة الأخلاق، ويستوجب مسؤولية أخلاقية. وأيضاً ننبه هنا إلى ما أسلفناه من قبل من أن التعاون المطلوب في كل مهنة بحسب طبيعتها

- فالتعاون المطلوب بين المدرسين يختلف عن المطلوب بين الطبيب والمريض، أو طاقم الطائرة... وهكذا.
- كما أننا لا شأن لنا بالجوانب الأخرى التي لا تتصل بالمهنة كالتعاون بين أفراد الأسرة أو الجيران... ونحو ذلك.

❖ أدلة التعاون المهني:

يدل لخلق التعاون المهني أدلة كثيرة من القرآن والسنة، نذكر فيما يلي بعضاً منها:

1 - من القرآن الكريم: قوله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّعَدْوَانِ} [المائدة: 2] فالتعاون على كل ما هو من البر والخير مطلوب، والتعاون على كل ما فيه نفع العباد مطلوب، ولا شك أن التعاون في أداء مهام المهنة أحد صورها.

2 - وقوله تعالى على لسان ذي القرنين: [قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا] [الكهف: 95]. فهذا ذو القرنين وهو من هو في قوته ودهائه يطلب الإعانة لإنجاز ما هو مطلوب منه، فالفرد قليل بنفسه، كثير بإخوانه.

3 - وقوله تعالى: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ] [الحجرات: 10]. وقد سبق أن بينا في الشروط معاني هذه الأخوة وضرورتها للتعاون المهني

4 - وقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] [آل عمران: 200]. فالآية لا تأمر بالصبر فحسب، بل بالمصابرة أيضاً، وهي أشد وأبلغ من الصبر، حيث فيها حمل النفس على المزيد من التحمل والثبات. فهذه الآيات واضحة الدلالة في الحث على التعاون والأخوة والصبر التي هي من جملة خصال خلق التعاون المهني.

ومن الأحاديث النبوية الشريفة في الموضوع:

1 - قوله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم). ومعلوم أن ممارسة المهنة تستلزم المخالطة، إذ لا يتصور ممارستها بمعزل عن الناس، وإذا تمت المخالطة فلا بد أن ينتج عنها الأذى بقصد أو بغير قصد، ومن ثم كان الصبر مطلوباً كما حث عليه الحديث الشريف.

2 - وقوله صلى الله عليه وسلم: (الدين النصيحة قلنا لمن قال الله وكتبه ولسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم). وبذل النصيحة وجه من وجوه التعاون على الخير، وعلى ما فيه النفع والفائدة.

3 - وقوله صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربة من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة). فالحديث يبين الواجب الأخلاقي على كل مسلم تجاه إخوانه من المسلمين، فلا يظلمه، ولا يتخلى عنه، بل يسعى في قضاء حوائجه، وتفريج كربته، وتحقيق الستر له.

4 - وقوله صلى الله عليه وسلم: (عجباً لأمر المؤمن أن أمره كله له خيرٌ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له). وغيرها من الأحاديث في هذا الباب كثير، تؤكد جميعها على قيم الأخوة والتعاون والمحبة والتناصح والتنافس الشريف بين أبناء المجتمع الإسلامي.

هناك عقود ومهن كثيرة يتجلى فيها مظاهر التعاون المهني ذكرها الفقهاء في مصنفاتهم نكتفي بذكر بعض منها:

1 - الإقالة في العقود:

وتعني نقض العقد وإبطاله برضا الطرفين بناءً على طلبٍ من أحدهما بعد إبرام العقد ولزومه وترتب آثاره. أي أن أحد الطرفين يبدي ندمه وتراجع عن الإقدام على العقد من بعد لزومه وترتب آثاره، فيستجيب له الآخر تقديراً لظروفه، ومراعاة لحق الأخوة التي يحث عليه الشرع، وقد أجمع الفقهاء على أن الإقالة مندوبة؛ لأنها من باب التعاون على البر، ويقول فيها عليه الصلاة والسلام: (من أقال مسلماً عثرته أقال الله عثرته يوم القيامة). والإقالة قد تكون بين متعاقدين في عقد بيع أو إجارة أو مريض مع طبيب، أو مهندس أو شركة للمقاولات مع من يريد إنشاء مبانٍ أو محلات تجارية، ولا شك أن ذلك من باب التعاون على البر، والاستجابة لدواعي الأخوة، وهما من خصال التعاون المهني.

2 - عدم الخطبة على خطبة أخيه وعدم البيع على بيعه:

قال صلى الله عليه وسلم: "لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه، ولا يبيع على بيع أخيه، إلا بإذنه". أي أن الشرع ينهى عن المزاحمة والمنافسة غير الشريفة، والتي من شأنها أن توغر الصدور، وتجلب الكراهية والحقد، لما في ذلك من المنافة لحقوق الأخوة والتعاون التي يجب أن تسود العلاقات بين الناس، فالرجل الذي يقدم على خطبة امرأة، من بعد أن تمت خطبتها من قبل آخر، وتم الاتفاق بينهما، يُقدّم على عملٍ مشين، وكذا من يأتي ويسعى لنقض عقد بيعٍ قد تمّ وأبرم، فيقول للمشتري: ردّ عليه سلعتي وأبيعك مثلها بسعر أرخص، أو أبيعك أحسن منها بنفس السعر! مثل هذا العمل ينافي خلق الأخوة والتعاون، وعلى العكس من ذلك يؤدي إلى التدابر والتنافر، والتنافس غير الشريف، ولا شك أن الشرع لا يرضى لأتباعه مثل هذه الأخلاق المشينة والمذمومة، فانه عز وجل يحب معالي الأمور، ويكره سفاسفها.

3 - التصريح بما في السلعة من العيوب:

لا خلاف في أن بذل النصح واجب للمسلم على أخيه المسلم، فقد كان رسول الله يأخذ على الناس في البيعة بذل النصيحة كما يأخذ عليهم الفرائض، يقول جرير: "بايعت رسول الله على السمع والطاعة، فشرط عليّ: والنصح لكل مسلم" وهذا الخلق يتطلب من البائع أن يذكر كل عيب يعلمه في سلعته، أو يخبر المشتري بأنها مغشوشة مثلاً، فيبذل له النصيحة، وإلا كان كاتماً للعيب، غاشياً له، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ، مَا لَمْ يَنْفَرَقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا". فكتمان العيب محرم، ويمحق بركة البيع في الدنيا، ويُعرض فاعله للعذاب في الآخرة. قال بعض أئمة السلف: (لا يحل لامرئٍ يبيع سلعةً يعلم بها داءً إلا أخبره). ويقال مثل ذلك في المشتري، إن وجد أن السلعة تستحق أكثر مما يطلبه البائع، وأن صاحبها يجهل قيمتها، فالذي يتطلبه الخلق القويم أن يخبره بذلك، وقد ورد أن جرير بن عبدالله -راوي الحديث - اشترى فرساً فطلب صاحبها منه مائتي درهم، فوجد جرير أن الفرس تستحق أكثر، وأنه يجهل قيمتها، فزاده في سعرها حتى أوصلها إلى ثمان مائة درهم، ثم ذكر الحديث السابق "والنصح لكل مسلم".

المحاضرة الثانية عشرة

الأمانة المهنية

❖ تعريف الأمانة المهنية:

الأمانة لغة: عكس الخيانة، وتفيد الأمن والاطمئنان وعدم الخوف. وتطلق أيضاً على كل ما عهد به إلى الإنسان من حقوق أو واجبات أو حاجات للآخرين، فيطالب بالحفاظ عليها وإيصالها إلى ذويها سالمة. قال تعالى: [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا] {النساء: 58}، وقال أيضاً: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ] {الأنفال: 27}.

والأمانة المهنية تعني في الاصطلاح الحفاظ على المهنة بحفظ عهدها وعدم الخيانة فيها. وتتمثل في أصول ثلاثة هي :

- 1 - ما يخص حقيقة المهنة: وذلك بالحفاظ على خصوصية العلاقة بين أطراف المهنة بحسب طبيعة المهنة، مما يعرف عند الناس بأنه نقض للعهد، وإفشاء لأسرارها .
- 2 - ما يخص التصرف في المهنة: وذلك من خلال الحفاظ على مصالح المهنة الحقيقية، لا مصالحه الشخصية على حساب المهنة. فلا يسرف في الإنفاق فيما يستلزم الإنفاق، ولا يستغل مهنته أو منصبه ليقدم مصالحه الشخصية على مصالح المهنة.
- 3 - ما يخص وسيلة المهنة: سواءً في الوصول إليها أو في أدائها، فيجب أن تكون مشروعة لأن الغاية لا تبرر الوسيلة، وللوسائل حكم المقاصد، فلا كذب ولا غش ولا نفاق ولا غيبة ولا نميمة.

❖ شروط الأمانة المهنية:

من خلال تعريف المهنة يمكن وضع أهم الشروط التي يجب توافرها لتحقيق الأمانة المهنية، وتلخيصها في الآتي:

- **الشرط الأول:** أن يحافظ جميع الأطراف على أسرار المهنة مما يعد إفشاؤه نقضاً للعهد. فمثلاً الطبيب يطالب بالحفاظ على نوعين من الأسرار:

- ما يتعلق بجهة عمله كالمستشفى فلا يفشي أسرارها.
- ما يتعلق بالمريض ووضعه الصحي مما يعد سراً فلا يفشيه.

وعليه فلا يدخل في أسرار المهنة:

أ - ما لا علاقة له بالمهنة كأن يعترف المريض أمام الطبيب بأنه قد ارتكب جريمة أو جنابة في حق آخرين، أو اعتدى عليهم.

ب - ما لا يعد سراً بين الناس ولا يعد الكشف عنه نقضاً للعهد، كأن يذكر اسم المريض أو مهنته أو مكان إقامته.

ج - ما يعد سراً ولكن إفشاؤه في تلك الحالة مطلوب لجهة محددة لتعلق مصالحهم بالكشف عنها، وذلك كما لو أقد طرف على خطبة من آخر، فأجروا فحوصات طبية، فتم إجراؤها فيجب هنا الكشف عن حقيقة الوضع للأطراف، ولا يجوز إخفاؤها.

والمستشفى تحتفظ بنوعين من الأسرار:

أ - ما يتعلق بالطبيب من حيث أجرته أو الجزاءات الإدارية الواقعة عليه مثلاً.

ب - ما يتعلق بالمريض مما يعد كشفه نقضاً للعهد، ومضراً به.

والمريض يحتفظ أيضاً بنوعين من الأسرار:

أ - ما يتعلق بالمستشفى أو الجهة الطبية من معاملة خاصة كتخفيض الأجر مثلاً ومراعاة ظروفه الخاصة.

ب - ما يتعلق بالطبيب كأن يكون قد عامله بصورة مخصوصة مثل السماح له بمراجعته خارج أوقات الدوام الرسمي، أو مراجعته في بيته ... أو غير ذلك مما يعد الكشف عنه مزعجاً للطبيب.

- **الشرط الثاني:** أن يلتزم أصحاب الشأن في المهنة الرشد في التصرف من غير إسراف أو استغلال.

فمثلاً الطبيب لا يستغل ما وضع تحت تصرفه من الأجهزة في سبيل معالجة أصحابه وقرابته من غير إذن صاحب العمل، كما أنه لا يسرف في استعمال الأدوات الطبية التي وضعت تحت تصرفه.

والمستشفى لا تستغل الطبيب في طلبه خارج أوقات دوامه في سبيل مصالحها، أو الكشف على مرضى غير مدرجين في قائمة عمله. والمرضى لا يستغل فرصة وجوده مع الطبيب في السؤال عن أعراض مرضية يعاني منها بعض من يخصونه. وهكذا.

- **الشرط الثالث:** أن يلتزم أصحاب الشأن في المهنة السبل المشروعة التي تحفظ شرف الوسيلة لشرف المقصد ،

فلا مجال للكذب ولا للنفاق ولا للغش ولا الغيبة ولا النميمة.

❖ التوجيه الفقهي لخلق الأمانة المهنية:

ما ذكرناه سابقاً في الطهارة المهنية وما بعدها يتكرر هنا ومن ثمّ فلا داعي لإعادته مرة أخرى. بمعنى أن الحد الأدنى من الأمانة المهنية ضرورية وقد تم التنصيص عليه من خلال القوانين والعقود، فإذا نحن هنا سنتناول ما وراء ذلك. كما أن الأمانة المهنية تختلف من مهنة إلى أخرى، وكذلك لا شأن لنا بما وراء المهنة كالبيت و الشارع و نحوهما .

❖ أدلة الأمانة المهنية:

- يدل لخلق الأمانة المهنية آيات عديدة من كتاب الله وأحاديث نبوية كثيرة نذكر بعضها فيما يأتي:
- 1 - قَالَ تَعَالَى: [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا] {النساء: 58}، وقال أيضاً: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ] {الأنفال: 27}. فهذه الآيات تأمر بالحفاظ على الأمانات وأدائها على وجهها المطلوب، والأمانة المهنية جزء منها.
 - 2 - قال تعالى: [وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ] {التحریم: 3} وفي هذا ما يدل على أنه ما كان ينبغي لهن الإفشاء بالسر الذي أسره النبي صلى الله عليه وسلم لبعض أزواجه.
 - 3 - قال تعالى: [وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ... وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا] {الحجرات: 11 - 12} وقال تعالى: [وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ] {يوسف: 18} فهذه الآيات تنهى عن صفات خلقية ذميمة من مثل الكذب والغش والغيبة واللمز وهي كلها متعارضة مع خلق الأمانة التي يجب التحلي بها، ومنها الأمانة المهنية.
 - 4 - وفي هذا أيضاً ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في صفات المنافقين: (وإذا أؤتمن خان). وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك)
 - 5 - . وقال أيضاً: (مَنْ حَدَّثَ فِي مَجْلِسٍ بِحَدِيثٍ فَالْتَفَتَ فِيهِ أَمَانَةٌ) أي أنه لا يجوز نقل كلام الآخرين، وإفشاءه، حتى وإن لم يطلبوا كتمانها صراحة، أو يقولوا هذه أمانة، بل يكفي أن يفهم منهم ذلك بمجرد الإشارة والإيماء كالالتفاتة التي تومئ إلى أن صاحبها يريد أن يخفي الخبر عن الآخرين، ولا يريد أن يسمعه غير من يتحدث إليه.

❖ مظاهر الأمانة المهنية عند الفقهاء:

ذكر الفقهاء كثيراً من الأحكام الفقهية ذات العلاقة بخصال الأمانة الخلقية نشير هنا إلى بعض منها:

أولاً: المنع من استغلال المهنة:

والمقصود باستغلال المهنة: هو تسخيرها لتحقيق مصالحه الشخصية، أو لما يمكن أن تحقق له ذلك. ومن صورها الفقهية قبول الهدايا، فقد حذر الشرع من استغلال المهنة فحرم الرشوة، وحرم كذلك هدايا العمال والمسؤولين التي تأخذ صورة الهدية لكنها في حقيقتها رشوة، إذ لولا ذلك لما كانت تهدي إليه، ومن هنا أنكر الرسول صلى الله عليه وسلم على ابن اللببية فعله حين استعمله على الزكاة (ليجمعها) فجاء وقال: هذا لكم وهذا أهدي إلي! فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُنْبَرِ، فَحَمَدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: " مَا بَالُ عَامِلٍ أَنْعَمَهُ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِي لِي، أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ، أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ، حَتَّى يَنْظُرَ أَيُّهُدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا؟" ثم حذر من عقوبة هذا الفعل يوم القيامة". وقال في حديث آخر: "هدايا العمال غلول". وقال أيضاً: "من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مَخِيطاً فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة". والغلول في الأصل: أخذ شيء من مال الغنيمة أو المال المشترك قبل القسمة، وسمي هذا غلولاً؛ لما فيه من نقض العهد، وخيانة الأمانة.

ثانياً: المنع من الغش في المهنة: والغش

في المهنة يعني التدليس والخداع في أدائها بما يوهم السلامة، أو كثرة راغبيها لإغراء الآخرين بها، أو رفع الأجر عليهم. والأصل الفقهي الذي يتأسس عليه المنع من التدليس والخداع في المهنة هو تحريم التصرية. والأصل الفقهي الذي يتأسس عليه المنع من ادعاء كثرة الطالبين للمهنة هو تحريم النجش. أما التصرية فهي: ترك حلب الدابة مدة من الزمن، حتى يجتمع قدرٌ كبيرٌ منه في ضرع الدابة، فيتوهم الراغب في الشراء أنها كثيرة اللبن، فيقدم على شرائها. وهذا العمل محرم بلا خلاف؛ لما فيه من الخداع والغش، والإخلال بالأمانة المهنية. وقد وردت الأحاديث في النهي عن الغش بصورة عامة، وعن التصرية بشكل خاص؛ فقال صلى الله عليه وسلم: "لا تصروا الإبل والغنم".

ويلحق بهذا كل عمل من شأنه خداع الآخرين بالشيء، وإغراؤهم به، مع كون الحقيقة على خلاف ذلك، كأن يستخدم أصبغاً أو ألواناً خادعة تخفي حقيقة وضع السلعة، أو نكهات تخفي حقيقة الطعم الأصلي لها، أو أنواعاً من زيوت المحركات لإخفاء وضع محرك السيارة ساعة من الزمن حتى يتم بيعها، وهكذا.. وهذا كله تدليسٌ وغشٌ محرّمٌ، ويخالف الأمانة الخلقية. وأما النجش فهو: أن يبدي الشخص رغبة في شراء سلعة، لا ليشتريها، بل لإغراء غيره بها، ولإيهام بكثرة الراغبين فيها. وهو محرّمٌ شرعاً، ومن أنواع الغش، لما فيه من خداع الآخرين، والتعريض بهم. وقد وردت أحاديث نبوية شريفة في النهي عن هذا الفعل، منها قوله صلى الله عليه وسلم: "ولا تتاجشوا". ويلحق به ما يشبهه من أنواع الغش والخداع مما يستثير الناس، ويغريهم بالشراء

ثالثاً: الحجر على السفية:

والسفيه هو الذي لا يحسن التصرف في المال، ولا يقدر عواقب تصرفاته، فيقدم عليها بدافع الطيش والهوى، وبعيداً عن العقلانية والرشد الذي هو إصلاح المال وتنميته والمحافظة عليه. إذا فالسفيه عكس الرشيد، والسفه عكس الرشد. ومن صور السفه مثلاً: أن يستهلك الممرض أضعاف المطلوب من الشاش والمراهم في معالجة جرح مريض مثلاً. أو أن يستهلك العامل أضعاف ما يحتاج من الوقود للسيارة، أو الأسلاك لتمديدات كهربائية. ونحو ذلك. وقد طالب الشرع بالحجر على السفية ومنعه من التصرف بأمواله، حفاظاً عليها من الضياع والتبديد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء 5). ولا شك أن النهي عن هذه التصرفات (الغلول والرشوة والتصرية والنجش والإسراف) من شأنها أن تؤسس لخلق الأمانة المهنية.

المحاضرة الثالثة عشرة

المحبة المهنية

❖ تعريف المحبة المهنية:

المحبة تعني الميل والود والإيثار قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ [التوبة: 23]} أي؛ إن اختاروا وآثروا وقدموا الكفر على الإيمان.

❖ وللمحبة أنواع متعددة منها:

- 1 - **حب عقيدة وإيمان:** وهو حب الله، وحب رسوله صلى الله عليه وسلم، وحب آل بيت رسول الله، وحب قراءة القرآن، وحب الإنفاق في سبيل الله، وحب الجهاد... وهكذا. ومن ذلك ما في الحديث: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار".
- 2 - **حب فطرة وطبع:** كحب الولد، وحب المال، وحب الحياة، وحب الطيب، وحب المناظر الجميلة... وهكذا، وهي أشياء يستوي في حبها المؤمن والكافر، والكبير والصغير، والرجل والمرأة، والحضري والبدوي، والمتعلم والجاهل، فالجميع مفطورٌ عليه، كما في قوله تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} {آل عمران: 14}. فالآية لم تقل: زين للمؤمنين، أو للنساء، أو للرجال، بل قالت: للناس فدللت على أن الجميع مفطورٌ عليه.
- 3 - **حب تقدير وإعجاب:** كحب عقبة بن نافع، أو عبد الرحمن الداخل، أو صلاح الدين الأيوبي أو محمد الفاتح لبطولاتهم والفتوحات التي أجزاها الله على أيديهم، وحب حاتم الطائي وابنه عدي لكرمهما، وحب عنتره لشجاعته، وحب آخر للنجاحات التي حققها في حياته، ومنه قوله تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} {الحشر: 9}.
- 4 - **حب مصلحة ومنفعة:** كحبنا لمن قدم إلينا يد العون والمساعدة، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها" ويقول الشاعر أبو الفتح البستي في قصيدته (عنوان الحكم):
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم *** فطالما استعبد الإنسان إحسان
- 5 - **حب الرذائل وحب السمات:** كحب الشر للأعداء، أو حب الفواحش والرذائل، ومن صور ذلك ما أخبر عنه القرآن الكريم بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} {النور: 19} وما يتعلق ببحثنا هو النوع الرابع، أي؛ الحب المبني على المصلحة والمنفعة.

❖ أصول المحبة المهنية:

إن المحبة المهنية تعني الميل تجاه المهنة لتحقيق أصول المحبة الثلاثة:

- 1 - التوادد بمراعاة آداب اللياقة في علاقات المهنة.
 - 2 - التراحم بالإحسان إلى زملاء المهنة والمنتفعين منها.
 - 3 - التعاطف من خلال الإيثار لمصلحة المهنة.
- هذه الأصول الثلاثة جمعها الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: (مثل المؤمنين في تواددهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى).
- هذه الأصول الثلاثة هي جسور المحبة التي تجعل من الجماعة كأنها شخص واحد، وكذلك تجعل من الشخص الواحد ومهنته وكأنهما شيء واحد.
- فإذا تحقق هذا الاتحاد أمكن القول بأن خلق المحبة المهنية متحقق بالفعل.

❖ شروط المحبة المهنية:

يتحقق خلق المحبة المهنية إذا توافرت الشروط التالية:

- 1 - **تقديم مصلحة المهنة على سائر مصالحه الحياتية الأخرى:**
بمعنى أن تكون مهنته هي الشغل الأهم له من بين أعماله اليومية الأخرى، فتفكيره في معظمه منصب على كيفية تطويرها بحيث تكون أنفع، وجهده منصب في أكثره على خدمتها بحيث تحقق نجاحاً أكبر، فهي مصدر رزقه، ومستقبلها مستقبلياً هو، وسمعتها

الطبية رأس مال له، واستمرارها ونجاحها نجاح له.. وهكذا. وبهذا يكون قد أثبت إخلاصه لمهنته، وتفانيه في حبها، وبذلك يصل إلى إتقانها على النحو الذي يحبه الله ورسوله. فالمدرس الذي يحب مهنته هو الذي يجعل مهنة التدريس شغله الأهم في شؤون حياته اليومية، ويسعى دائماً لتطويرها، ويسخر وقته وجهده وعلمه وعلاقاته بالآخرين في سبيل تطويرها والتقدم بها وإنجاحها، وهكذا الطبيب والمهندس والمحاسب والمحامي... وبقدر محبته لمهنته، يكون تضحيتيه في سبيل الرقي بها.

2 - الانتصار للمهنة بالدفاع عنها وعن العاملين فيها:

وهذه نتيجة حتمية للشرط الأول، بمعنى أنه إذا أحب مهنته، وكان مخلصاً لها، متفانياً في محبتها، نتج عن ذلك بدهاء دفاعه عنها، وغيرته عليها، وعلى العاملين بها، ورأى أن كل انتقاص لها أو للعاملين عليها، انتقاص له، لأنه يرى فيها نفسه، وسمعته، ومستقبله. وهذه المحبة ستدفعه إلى الوقوف في وجه كل من يشوه سمعتها، أو يسيء إليها، وإن كان من العاملين فيها، لأنه يرى في ذلك حمايتها والانتصار لها، وذلك بالمفهوم الذي نبه إليه الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال: "أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا"، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَصْرُهُ مَظْلُومًا (أي عرفناه) فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: "تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ". فأنا عندما أخذ على يد شقيقي أو ولدي أو صديقي فأمنعه من الظلم، أكون قد نصرته وأحسنت إليه من غير شك، لأنني أنقذته من غضب الله، ومن الوقوع في المعصية، وصننت سمعته وسمعتي بين الناس، وسعيت في إرساء مبادئ العدالة التي بها قامت السموات والأرض، وكذلك الانتصار للمهنة تكون بالأخذ على يد المسيء إليها حفاظاً على سمعتها، وسمعة العاملين بها، وسعياً لتحقيق نجاح المهنة في بلوغ أهدافها على أكمل وجه.

3 - إقضاء السلام لنشر المحبة بين الناس وخصوصاً زملاء المهنة الواحدة:

فالسلم اسم من أسماء الله تعالى، وإلقاؤه يعني تطمين المسلم عليه بأنه لن يجد الأذى أو ما يكرهه أو يخافه من جهته، فهو في أمان منه، وهو بذلك يفتح طريقه إلى قلبه، فتتولد المحبة بينهما، وتمتد جسور التواصل، وفي ذلك يقول الرسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده، لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنون حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"

4 - طلاقة الوجه بشكل دائم:

وهذه بمثابة التكملة للشرط السابق، إذ ما قيمة السلام بوجه عبوس؟! إن السلام يجلب المحبة، ويجد طريقه إلى القلوب، إذا صاحبتة البشاشة وطلاقة الوجه، لأنها الدليل الأقوى والأوضح على ما يكنه القلب لسامع السلام، ومن ثم جاء الشرع بالحث عليه فقال الرسول الله صلى الله عليه وسلم: "تبسمك في وجه أخيك صدقة". وقال أيضاً: "كل معروف صدقة ... ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق".

6 - الاعتناء بالنظافة الشخصية واختيار الزي المناسب لطبيعة المهنة:

لأن الذوق السليم يحب النظافة، وينفر من الفذارة، والشخص النظيف محبوب لدى زملائه يألف ويؤلف، وديننا الحنيف دين الذوق الرفيع، ودين مراعاة المشاعر، ومن هنا حثَّ على الاغتسال لكل تجمع مثل صلاة الجمعة، وصلاة العيد، وللإحرام بالحج والعمرة، وأمرنا بأن نكون كالشامة بين الناس، وما الوضوء للصلوات والاعتسال إلا أدلة عملية على مدى حب الدين للنظافة. وفي هذا السياق جاءت الآية القرآنية: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} {الأعراف: 31} .

7 - إكرام ذوي الهيئات:

الإنسان عرضة للوقوع في الخطأ لنسيان، أو إهمال، أو جهل، أو ساعة ضعف، أو غير ذلك من الأسباب، والناس ليسوا جميعاً سواءً، فهناك من تردعه الإشارة، وهناك من لا يردعه إلا العقوبة القاسية، وبين المرتبتين مراتب كثيرة، بحسب تربية الشخص، وأخلاقه، واستقامته، وأصالته، وقد نبهنا ديننا إلى مراعاة ذلك، حتى لا نعتقد خطأً وجهاً منا بمبدأ المساواة فنذهب إلى معاملة جميع الناس بنفس الطريقة فيبين أن الخطأ على قسمين: خطأ يستوجب إقامة عقوبة محددة شرعاً وتسمى الحدود، وهذه لا مراعاة فيها، وتقام على الجميع، أياً كانت صفته أو مركزه في المجتمع لخطورة هذا النوع من الخطأ. وخطأ لا حدَّ فيه لأنه ليس بتلك الخطورة، لكنه لا يخلو منها، فهذا يستوجب التعزير. وهنا نجد أن الشرع يميز بين من هو من أصحاب المكانة والوجاهة في قومه، وبين غيره ممن هو ليس كذلك، والسبب هو أن الغرض من هذه العقوبة التأديب والردع لئلا يعيد ذاك الخطأ ثانية، وأصحاب الهيئات يكفيهم التنبيه والإشارة لينتبهوا ولا يعيدوه ثانية، بخلاف غيرهم فقد لا تردعه إلا العقوبة، وهذه العقوبة تتفاوت ما بين الكلمة الزاجرة، والعقوبة الجسدية أو السجن، حسب ما يراه القاضي رادعاً له، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أقبلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود".

8 - إراحة العاملين في المواسلات والمواعيد والإقامة:

وذلك لأن هذه الأمور تشعره بأنه محل تقدير واحترام المسؤولين عنه، ولا شك أنهم أيضاً سيكونون محل محبته واحترامه وتقديره، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم موصياً بحسن معاملة العبيد: "إِحْوَانُكُمْ حَوَالِكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ

فَلْيُطْعِمُهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تَكْلُفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعْيُونُوهُمْ". وإذا كان هذا ما ينبغي له فعله مع عبده، فكيف يجب أن يكون الحال مع حر مثله، وزميله في المهنة! وصدق الله إذ يقول: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} {الرَّحْمَنُ: 60} .
فالتكريم والإحسان إلى الآخر يجلب محبته وإحسانه.

9 - الإيثار وتقديم مصالح الآخرين:

الإيثار هو أن يحرم الشخص نفسه، ويقدم مصلحة الآخرين وحاجتهم على مصلحة نفسه مع شدة حاجته، وهي مرتبة فوق الإحسان في سلم القيم الأخلاقية، وقليل من الناس من يصل إلى هذه المرتبة، وهي سبب رئيس للفوز بمحبة الله ومحبة العباد، وقد أثنى الله على الصحابة الأنصار لتحقيقهم بهذا الخلق العظيم، فقال تعالى: {وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} {الحشر: 9} .
والخصاصة شدة الجوع، أي أنهم كانوا يؤثرون ويقدمون غيرهم على أنفسهم فيما يملكونه من زادٍ، مع شدة حاجتهم إليه، وليس يدفعهم إلى ذلك إلا الطمع فيما عند الله.
ولا يخفى مدى أهمية هذه الشروط في تحصيل وتحقيق المحبة المهنية.

❖ التوجيه الفقهي لخلق المحبة المهنية:

ما ذكرناه سابقاً في التوجيه الفقهي لخلق الطهارة المهنية وما بعدها يقال هنا أيضاً، ومن ثم فلا داعي لتكراره، أي أن الحد الأدنى من المحبة المهنية ضرورية، وقد تم التنصيص عليه من خلال القوانين والعقود، وبحثنا هنا يتناول ما وراء ذلك.
كما أن هذه المحبة المهنية تختلف من مهنة إلى أخرى، فما يطلب من المدرس يختلف في بعض جوانبه عن ما يطلب من الطبيب أو القاضي أو المحاسب.

وكذلك لا شأن لنا بما وراء المهنة كالبيت والشارع.

ثم ننبه هنا إلى أن الأصل في الإنسان أن يختار مهنةً يحبها، وتنسجم مع ميوله وتوجهاته، ويجد فيها راحته النفسية، إلا أن كثيراً من الناس اليوم لم تعد محبته وميوله للمهنة هي التي توجهه، بل الدخل الأكثر، والسمعة، والمكانة الاجتماعية بين الناس! وهو ما انعكس سلباً على خلق المحبة المهنية، فأصبحنا نجد أناساً يمارسون مهنتهم بغير رغبة منهم، ولا شعور بولاء تجاهها، بل ربما مارسوها وهم لها كارهون.

❖ الأدلة في البحث على المحبة المهنية:

يدل لخلق المحبة المهنية آيات عديدة من كتاب الله وأحاديث نبوية، نذكر منها:

1 - قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا فَلْيُوقِ شَحْنًا قَوْلِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} {الحشر: 9} .

فقد امتدح الله الأنصار لاتصافهم بخلق المحبة والإيثار، فعلى الرغم من أن الله قدم ذكر المهاجرين على ذكرهم، وأعطى المهاجرين من الفضل والشرف أكثر مما أعطاهم، فإنهم لم يتأثروا بذلك، ولم تتمكن دوافع الغيرة والأنانية من التأثير على نفوسهم الطيبة الزكية، فسجل الله لهم تلك الصفة الخلقية الراقية.

2 - وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} {النحل: 128} فالآية تنثني على المحسنين، والإحسان من خلق المحبة المهنية.

3 - عن أنس بن مالك، قال: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَطَّلِعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ تَنْطُفُ لِحَيْثُهُ مَاءٌ مِنْ وَضُوئِهِ مُعَلَّقٌ تَعْلِيهِ فِي يَدِهِ الشَّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَطَّلِعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ مَرْتَبَتِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَطَّلِعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ مَرْتَبَتِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتَّبَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِي فَقَالَ: إِنِّي لَأَحِبُّ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَحِلَّ يَمِينِي فَعَلْتُ، فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ أَنَسٌ: فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِي يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ لَيْلَةً أَوْ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَلَمَّ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ بِشَيْءٍ، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا انْقَلَبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ، وَكَبَّرَ حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ فَيُسَبِّحُ الْوُضُوءَ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: غَيْرَ أَنِّي لَا أَسْمَعُهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتْ الثَّلَاثُ لَيَالٍ كَذَتْ أَحْتَوِرُ عَمَلَهُ، فَلُتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ الْوَيْدِ غَضَبٌ وَلَا هَجْرَةٌ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي ثَلَاثِ مَجَالِسٍ: «يَطَّلِعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَطَلَعْتَ أَنْتَ تِلْكَ الثَّلَاثَ مَرَّاتٍ، فَأَرَدْتُ أَوْيَ إِلَيْكَ فَأَنْظَرُ عَمَلَكَ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَبِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، فَأَنْصَرَفْتُ عَنْهُ، فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ غَيْرَ أَنِّي لَا أُجِدُ فِي نَفْسِي غَلًّا لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا أَحْسِبُهُ عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: هَذِهِ اللَّيْلُ بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ اللَّيْلُ لَا تُطِيقُ".

فهذا الرجل لم يقدم مقداراً زائداً من العبادة أكثر من غيره بحيث تكون هذه الزيادة هي السبب وراء استحقاقه ذلك الفضل من الله، وتلك الشهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل قدم سلامة الصدر من الغش والحسد ونحوه تجاه أحد من المسلمين، وهذه السلامة للصدر هي من أخلاق المحبة المهنية.

❖ مظاهر المحبة المهنية:

ذكر الفقهاء كثيراً من الأحكام الفقهية ذات العلاقة بخصال المحبة الخلقية، نشير هنا إلى بعض منها:

1 - استئذان المرؤوس من الرئيس في المهنة:

اتفق الفقهاء على أن الاستئذان من الرئيس في المهنة مطلوب، ولا شك أنه من خلق اللياقة المهنية، ومن شأنه أن يحقق وينمي المحبة بين الرئيس ومرؤوسيه، كما أن عدم الاستئذان وتجاهل المسؤول فيه ما فيه من الكبر، ويؤدي إلى التنافر والتباغض بين الأطراف، ومن ثم وجدنا الإسلام يعلم المسلمين هذا الخلق الرفيع في أكثر من موضع، من ذلك قول الله تعالى في الحث على الاستئذان بصفة عامة: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ] {النور: 27}، وفي الحث على الاستئذان من الرئيس خاصة يقول الله تعالى: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِيَعِضَ شَأْنَهُمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] {النور: 62}.

ودلالة الآية على أدب الاستئذان واضحة جلية، لا تحتاج توضيحاً أكثر.

2 - إفساء السلام وردة:

أجمع الفقهاء على أن إلقاء السلام مندوب إليه شرعاً، لقوله صلى الله عليه وسلم: "أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم".

وأما الرد فواجب؛ لعموم قوله تعالى: {وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا} {النساء: 86}

فقد أمرت الآية بالرد وجوباً، وعلقت ذلك على حال إلقاء السلام، وأما الإلقاء فلم تأمر به الآية، ومن ثم كان الفرق بين الحالتين، حالة الإلقاء، وحالة الرد، فالأول مندوبٌ، والثاني واجبٌ.

ولا يخفى أن السلام عموماً من عوامل زرع المحبة بين الناس، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق، ومن ثم كان مطلوباً شرعاً.

3 - الإحسان إلى زميل المهنة:

قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} {النساء: 36}

وجه الدلالة أن الله سبحانه أمر المؤمن بالإحسان إلى الجار ذي القربى، وهو من كان بينهما قرابة النسب، وقيل: الزوجية. كما أمر بالإحسان إلى الجار الجنب، وهو الجار الغريب ليس من القوم أو القبيلة، وقد نزل بينهم، وكذلك أمر بالإحسان إلى صاحب الجنب، وهو رفيق السفر أو الضيف، وزميل المهنة لا يقل منزلة عن هؤلاء فيجب الإحسان إليه، والرفق به في المعاملة.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله في كتابه إحياء علوم الدين: "جملة حق الجار أن يبدأ بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويظهر الشركة في السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا في مصب الماء في ميزابه، ولا في مطرح التراب في فئائه، ولا يضيق طريقه إلى الدار، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستتر ما ينكشف له من عوراته، وينعشه من صرخته إذا نابتة نائبة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلاماً، ويغض بصره عن حرمة، ولا يديم النظر إلى خادمته، ويتلطف بولده في كلمته، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه، هذا إلى جملة الحقوق التي ذكرناها لعامة المسلمين".

وقد وردت نصوص كثيرة من الشرع في بيان حق الجار نكتفي بذكر هذين الحديثين:

قوله صلى الله عليه وسلم: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه".

وقوله صلى الله عليه وسلم: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن". قالوا: من يا رسول الله؟ قال: "من لا يأمن جاره بوائقه".

فهذان الحديثان يبينان بجلاء حق الجوار في الإسلام، ويلحق بهما زميل المهنة، لأنه جار في العمل، فينبغي أن يعامل بنفس القدر من الاحترام والرحمة والإحسان التي هي من خصال المحبة المهنية.

المحاضرة الرابعة عشرة

نموذج من مواثيق الشرف (أو المهنة)

❖ مقدمة عامة

قدّمنا فيما سبق نبذة عن أمهات أخلاق المهنة من الطهارة والأمانة والاستقامة والتعاون والمحبة، وذكرنا أن القدر الضروري من هذه الأخلاق منصوص عليه في الأنظمة والعقود، ومن ثمّ فهي واجبات، يُلزمُ بها المرءُ بقوة القانون، خلافاً لأخلاق المهنة التي هي سلوكٌ راقٍ متعارف عليه بين أهل المهنة، وينعكس إيجاباً على أدائهم لمهنتهم.

وقد درج العاملون في كثير من المهن في عالم اليوم على وضع مواثيق لمهنتهم، أسموها ميثاق الشرف، وهذه المواثيق في معظم بنودها محل اتفاق بين العقلاء، وقد تختلف في بعض الجزئيات من بلد إلى بلد حسب القيم التي يمجدها أهل كل بلد. كما أنها تختلف في بعض بنودها من مهنة إلى أخرى، مراعاة لطبيعة المهنة، وما يناسبها، فما يطالب به الطبيب يختلف عن ما يطالب به القاضي أو المدرس في بعض الجوانب، وإن كانت قليلة. كما أن هذه المواثيق تقتصر على ما يخص المهنة من حيث المكان والزمان والأشخاص، ولا شأن لها بما وراء ذلك. وفيما يلي نقدم ميثاق الشرف لمهنة التعليم في المملكة أنموذجاً، لنقف من خلاله على الجوانب التي أشرنا إليها آنفاً:

❖ ميثاق أخلاقيات مهنة التعليم

• مقدمة

المادة الأولى : يقصد بالمصطلحات الآتية المعاني الموضحة قرين كل منها . المادة الثانية : أهداف الميثاق
المادة الثالثة : رسالة التعليم . المادة الرابعة : المعلم وأدائه المهني . المادة الخامسة : المعلم وطلابه .
المادة السادسة : المعلم والمجتمع . المادة السابعة : المعلم والمجتمع المدرسي . المادة الثامنة : المعلم والأسرة .

• مقدمة :

تعد مهنة التعليم رسالة رفيعة الشأن، عالية المنزلة، تحظى باهتمام الجميع؛ لما لها من تأثير عظيم في حاضر الأمة ومستقبلها. ويتجلى سمو هذه المهنة ورفعتها في مضمونها الأخلاقي الذي يحدد مسارها المسلكي، ونتائجها التربوية والتعليمية، وعائدها على الفرد والمجتمع والإنسانية جمعاء.

وبديهى أن تستمد الأمم والمجتمعات أخلاقيات المهنة من قيمها ومقوماتها، ونحن بفضل الله نستمد أخلاقيات هذه المهنة من عقيدتنا الإسلامية المقررة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قدوتنا ومعلمنا في هذا الشأن. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾. فهو خير قدوة يقتدي بها الأفراد، وخصوصاً الطامحون لبلوغ الكمال الإنساني في السلوك.

إن هذا الميثاق يتضمن ما يشعر به كل معلم أنه يتعين عليه مراعاته في أدائه لرسالته، وقيامه بعمله قبيل أبنائه الطلاب وزملائه العاملين في الميدان التربوي، وقبيل الوطن بوجه عام، والأمة التي ينتمي إليها بوجه أعم والإنسانية جمعاء.

فالمعلم الناجح هو الذي يأسر قلوب طلابه بلطفه، وحسن خلقه، وحبه لهم، وحنوه عليهم، وينال إعجابهم واحترامهم بتمكنه من مادته التي يعلمها، وبراعة إيصالها إليهم.

والمعلم المحب لعمله يخلص له، ويجد المتعة فيه، وتهون عليه الصعاب والطالب يحب معلمه ويحترمه لما يجد فيه من قدوة حسنة، وعلم راسخ وحكمة ورفق. ورسولنا المعلم محمد صلى الله عليه وسلم يقول: "لم يدخل الرفق في شيء إلا زانه، ولم ينزع من شيء إلا شانه" وحبب الطالب للمعلم، يحب المادة، ويستسهل صعبها، ويتألق فيها؛ فينظر المعلم كيف يدخل إلى قلوب أبنائه ليؤدي المسؤولية العظيمة الملقاة على عاتقه.

ومعلوم أن فاقد الشيء لا يعطيه؛ فالجاهل لا يستطيع أن ينفع العلم، والضعيف لا يقدر أن يعين بقوة، وأنى للمعلم أن يرقى بالمتعلم! وأنى للمربي إذا لم يكن رصيده من القوة في العلم والأمانة والخلق ما يسع المتعلمين! ومن هنا، فالمعلم في المملكة العربية السعودية ينتمي إلى بلد شرفها الله بأنها منطلق رسالة الإسلام، كما شرفها بخدمة الحرمين الشريفين؛ لذا عليه أن يمثل المسلم الذي يعبد الله على بصيرة بعيداً عن الغلو أو التطرف أو الجفاء أو الانحلال، وأن يكون لطلابه قدوة حسنة يتأسون به، مهتدياً بهدي الرسول صلى الله عليه وسلم في الوسطية، التي دعا إليها الدين الحنيف في قول الله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (البقرة 143)

▪ المادة الأولى: المصطلحات الواردة في الميثاق:

يقصد بالمصطلحات الآتية المعاني الموضحة قرين كل منها :

- 1 - أخلاقيات مهنة التعليم : السجايا الحميدة والسلوكيات الفاضلة التي يتعين أن يتحلى بها العاملون في حقل التعليم العام فكراً وسلوكاً أمام الله ثم أمام ولاة الأمر وأمام أنفسهم والآخرين، وترتب عليهم واجبات أخلاقية.
- 2 - المعلم: المعلم والمعلمة والقائمون والقائمات على العملية التربوية من مشرفين ومشرفات ومديرين ومديرات ومرشدين ومرشدات ونحوهم.
- 3 - الطالب: الطالب والطالبة في مدارس التعليم العام وما في مستواها .

▪ المادة الثانية: أهداف الميثاق:

يهدف الميثاق إلى تعزيز انتماء المعلم لرسالته ومهنته، والارتقاء بها والإسهام في تطوير المجتمع الذي يعيش فيه وتقديمه، وتحببته لطلابه وشدهم إليه، والإفادة منه وذلك من خلال الآتي:

- 1 - توعية المعلم بأهمية المهنة ودورها في بناء مستقبل وطنه.
- 2 - الإسهام في تعزيز مكانة المعلم العلمية والاجتماعية.
- 3 - حفز المعلم على أن يتمثل قيم مهنته وأخلاقها سلوكاً في حياته.

▪ المادة الثالثة: رسالة التعليم:

- 1 - التعليم رسالة تستمد أخلاقياتها من هدي شريعتنا ومبادئ حضارتنا، وتوجب على القائمين بها أداء حق الانتماء إليها إخلاصاً في العمل، وصدقاً مع النفس والناس، وعطاءً مستمراً لنشر العلم وفضائله.
- 2 - المعلم صاحب رسالة يستشعر عظمتها ويؤمن بأهميتها، ويؤدي حقها بمهنية عالية.
- 3 - اعتزاز المعلم بمهنته وإدراكه المستمر لرسالته يدعوانه إلى الحرص على نقاء السيرة وطهارة السريرة ، حفاظاً على شرف مهنة التعليم.

▪ المادة الرابعة: المعلم وأدؤه المهني:

- 1 - المعلم مثال للمسلم المعترف بدينه المتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع أقواله، الوسطي في تعاملاته وأحكامه.
- 2 - المعلم يدرك أن النمو المهني واجب أساس، والثقافة الذاتية المستمرة منهج في حياته، يطور نفسه وينمي معارفه منتفعاً بكل جديد في مجال تخصصه، وفنون التدريس ومهاراته.
- 3 - يدرك المعلم أن الاستقامة والصدق، والأمانة، والحلم، والحزم، والانضباط، والتسامح، وحسن المظهر، وبشاشة الوجه، سمات رئيسة في تكوين شخصيته.
- 4 - المعلم يدرك أن الرقيب الحقيقي على سلوكه، بعد الله سبحانه وتعالى، هو ضمير يقظ وحسّ ناقد، وأن الرقابة الخارجية مهما تنوعت أساليبها لا ترقى إلى الرقابة الذاتية، لذلك يسعى المعلم بكل وسيلة متاحة إلى بث هذه الروح بين طلابه ومجتمعهم، ويضرب المثل والقوة في التمسك بها.
- 5 - يسهم المعلم في ترسيخ مفهوم المواطنة لدى الطلاب، وغرس أهمية مبدأ الاعتدال والتسامح والتعايش بعيداً عن الغلو والتطرف.

▪ المادة الخامسة: المعلم وطلابه:

- 1 - العلاقة بين المعلم وطلابه، والمعلمة وطلبتها، لُحمتها الرغبة في نفعهم، وسداها الشفقة عليهم والبر بهم، وأساسها المودة الحانية، وحارسها الحزم الضروري، وهدفها تحقيق خيري الدنيا والآخرة للجيل المأمول للنهضة والتقدم.
- 2 - المعلم قوة لطلابه خاصة، وللمجتمع عامة، وهو حريص على أن يكون أثره في الناس حميداً باقياً، لذلك فهو يستمسك بالقيم الأخلاقية، والمثل العليا ويدعو إليها وينشرها بين طلابه والناس كافة، ويعمل على شيوعها واحترامها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.
- 3 - يحسن المعلم الظن بطلابه ويعلمهم أن يكونوا كذلك في حياتهم العامة والخاصة ليلتمسوا العذر لغيرهم قبل التماس الخطأ، ويروا عيوب أنفسهم قبل رؤية عيوب الآخرين.

- 4 - المعلم أحرص الناس على نفع طلابه، يبذل جهده كله في تعليمهم، وتربيتهم، وتوجيههم، يدلهم على طريق الخير ويرغبهم فيه ويبين لهم الشر ويذودهم عنه، في رعاية متكاملة لنموهم دينياً و علمياً وخلقياً ونفسياً واجتماعياً وصحياً.
- 5 - المعلم يعدل بين طلابه في عطائه وتعامله ورقابته وتقويمه لأدائهم، ويصون كرامتهم ويعي حقوقهم، ويستثمر أوقاتهم بكل مفيد وهو بذلك لا يسمح باتخاذ دروسه ساحة لغير ما يعنى بتعليمه، في مجال تخصصه.
- 6 - المعلم أنموذج للحكمة والرفق، يمارسهما ويأمر بهما، ويتجنب العنف وينهي عنه ويعود طلابه على التفكير السليم والحوار البناء، وحسن الاستماع إلى آراء الآخرين والتسامح مع الناس والتخلق بخلق الإسلام في الحوار، ونشر مبدأ الشورى.
- 7 - يعي المعلم أن الطالب ينفر من المدرسة التي يستخدم فيها العقاب البدني والنفسي، لذا فإن المربي التقدير يتجنبهما، وينهى عنهما.
- 8 - يسعى المعلم لإكساب الطالب المهارات العقلية والعلمية، التي تنمي لديه التفكير العلمي الناقد، وحب التعلم الذاتي المستمر وممارسته .

المادة السادسة: المعلم والمجتمع:

- 1 - يعزز المعلم لدى الطلاب الإحساس بالانتماء لدينه ووطنه، كما ينمي لديهم أهمية التفاعل الإيجابي مع الثقافات الأخرى، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.
- 2 - المعلم أمين على كيان الوطن ووحدته وتعاون أبنائه، يعمل جاهداً لتسود المحبة المثمرة والاحترام الصادق بين المواطنين جميعاً وبينهم وبين ولي الأمر منهم، تحقيقاً لأمن الوطن واستقراره، وتمكيناً لنمائه وازدهاره، وحرصاً على سمعته ومكانته بين المجتمعات الإنسانية الراقية.
- 3 - المعلم موضع تقدير المجتمع، واحترامه، وثقته، وهو لذلك حريص على أن يكون في مستوى هذه الثقة، وذلك التقدير والاحترام، ويحرص على أن لا يؤثر عنه إلا ما يؤكد ثقة المجتمع به واحترامه له.
- 4 - المعلم عضو مؤثر في مجتمعه، تعلق عليه الآمال في التقدم المعرفي والارتقاء العلمي والإبداع الفكري والإسهام الحضاري ونشر هذه السمائل الحميدة بين طلابه.
- 5 - المعلم صورة صادقة للمثقف المنتمي إلى دينه ووطنه، الأمر الذي يلزمه توسيع نطاق ثقافته، وتنويع مصادرها، ليكون قادراً على تكوين رأي ناضج مبني على العلم والمعرفة والخبرة الواسعة، يعين به طلابه على سعة الأفق ورؤية وجهات النظر المتباينة باعتبارها مكونات ثقافية متكامل وتتعاون في بناء الحضارة الإنسانية.

المادة السابعة: المعلم والمجتمع المدرسي:

- 1 - الثقة المتبادلة والعمل بروح الفريق الواحد هو أساس العلاقة بين المعلم وزملائه، وبين المعلمين والإدارة التربوية.
- 2 - يدرك المعلم أن احترام قواعد السلوك الوظيفي والالتزام بالأنظمة والتعليمات وتنفيذها والمشاركة الإيجابية في نشاطات المدرسة وفعاليتها المختلفة، أركان أساسية في تحقيق أهداف المؤسسة التعليمية.

المادة الثامنة: المعلم والأسرة:

- 1 - المعلم شريك الوالدين في التربية والتنشئة فهو حريص على توطيد أواصر الثقة بين البيت والمدرسة.
- 2 - المعلم يعي أن التشاور مع الأسرة بشأن كل أمر يهم مستقبل الطلاب أو يؤثر في مسيرتهم العلمية، وفي كل تغير يطرأ على سلوكهم، أمر بالغ النفع والأهمية.
- 3 - يؤدي العاملون في مهنة التعليم واجباتهم كافة ويصبغون سلوكهم كله بروح المبادئ التي تضمنتها هذه الأخلاقيات ويعملون على نشرها وترسيخها وتأصيلها والالتزام بها بين زملائهم وفي المجتمع بوجه عام.

Done ☺

I wish you all the success